قصص القرآن
للأطفال

عماد الشافعي

المركز العربي الحديث
١٠٣ ش الامام على ـ ميدان الاسماعيلية ـ مصر الجديدة
القاهرة ـ ☎ ٢٧٠٦٠٤٨ فاكس ٢٧٤٦١٣٤

* حقوق الطبع محفوظة *

« قابيل وهابيل »

خَلق اللهُ الكونَ العظيمَ ، وخَلَق الملائكةَ ، قومٌ لا يَعْصُونَ الله ما أمرهُم ويفعلونَ ما يؤمرُونَ .

وبعد أن أوجدَ اللهُ تعالى الكَونَ ، وخَلقَ الأرضَ . وَهيَّأ فيها سُبُلَ الحياة والعُمران والعَيشِ الكَريمِ ، شاءتْ حِكمتهُ تعالى أن يَجعلَ فيها خَلقاً لَعمارتها .

فجمعَ اللهُ من تُرابها قَدْراً يَسيراً وجَعَلهُ طيناً لَيِّناً ، صَلْصَال من حَمأ مَسْنون ، ثُمَّ سَوَّاهُ بيديه وجعَلهُ بَشَراً سَوِيّاً . ثمَّ نَفَخ فيهِ من روحه ، فكانَ آدمُ على أحْسنِ صُورةٍ وأجملِ هَيأة . وقال اللهُ تعالى للملَائكة :

« إنى جَاعلٌ فى الأرض خليفةً ، قالوا : يا ربُّ أتجعلُ فيها من يُفسْدُ فيها ويَسْفكُ الدِّماءَ ونَحنُ نُسبحُ بحمدك ونُقدسُ لكَ؟! .

فقال الله لهم : إنى أعلَمُ مالا تَعْلمونَ .

وأرادَ اللهُ سبحانَهُ تكريمَ هذا المخلوق الجديد ـ آدمُ ، فأمرَ الملائكةَ بالسُّجود لهُ . فسجدَ الملائكةَ كُلُّهم طاعةً لله وتكريماً لآدمَ، إلا إبليسَ، استَكبَر ولم يَسْجدُ فسأله اللهُ : ما منعكَ أن تَسْجدَ لما خَلقتُ بيدىَّ ، استكبرتَ أم كُنتَ من العالينَ ؟!

فردَّ إبليسُ فى غُرورٍ : لم أكن لأسجدَ لبشرٍ ، أنا خيرٌ منهُ خلقتنى

من نَار وخلقتَهُ من طين .

فطَردهُ اللهُ من رحمته ، وحَذَّرَ آدمُ من غوايته ، وعَلَّم اللهُ آدمَ أسماءَ الموجودات والمخلُوقَات فى الدُّنيا . ثم امتحنَ اللهُ الملائكةَ فيما علَّمهُ لآدمَ ، فسألَهم : أنبئونى بأسماء هَؤلاء إن كُنتم صَادقينَ؟! .

قالتْ الملائكةُ : سُبحانكَ يا ربَّنا ، لا علْمَ لنا إلا ما علَّمتنا ، إنكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ .

قال اللهُ : يا آدمُ ، أنبئهم بأسمائهم .

فلَما أنبأهُم آدمُ بأسمائهم قال اللهُ للملائكة : ألَم أقُل لكُم إنى أعلمُ غَيْبَ السَّموات والأرضَ ، وأعلمُ ما تبدونَ وما كنتُم تكتمونَ . وأتمَّ اللهُ نعمتَهُ على آدمَ بأن أسكنهُ الجنةَ هو وزوجهُ وقال الله لهما : كُلا من الجنة رَغَداً حيثُ شئتُما . . ولكن لا تَقْربَا هذه الشَّجرة ، ولا تأكلا منها .

وحَسَدهُما إبليسُ (الشيطانُ) على نعم الله عليهما ، بينما هو طَريدٌ من رحمة الله ، ومَنْبوذٌ من ملائكتَه ، وفكَّرَ كيفَ يُكدرُ صَفْوَ عَيْشهما ، وكَيفَ يُغْويهُما ؟

وراحَ يُوسوسُ لهما .

وقال لآدمَ : يا آدمُ . . هَلْ أدُلُّكَ على شَجرة الخُلْد ومُلْك لا يَبْلَى . . إنها هذه الشجرة وأشارَ إلى الشَّجرة التى نَهىَ اللهُ عَنها .

ونَظَرَ آدمُ إلى الشَّجرة ، وتَذكَّر كلامَ الله لهُ . . فرفضَ أن يَقْربَ هذه الشَّجرةَ ، وتركَ إبليسَ وانصرفَ مع زَوجَته .

وجُنَّ جُنونُ إبليسَ ، إنه أخْفقَ فى غِوايهِ آدمَ وزوجهِ ؛ لابدَّ أن يُحاول مرةً أخرى . .

وأقسَم إبليسُ لآدمَ وزوجه بأنه لهما من النَّاصحينَ المُخلصينَ .

وعَصَى آدمُ ربَّه فَغَوىَ . . أكَلَ هو وزَوْجُه من الشَّجرة ونَسيا تَحذيرَ الله لهما ، فَبدَتْ لهما عَوْراتُهما ، فنَظَرَ كُلٌّ منهما للآخر ، وشَعرا بالذَّنب وبالخَجل ، وأخذَا يَقْطفانِ من وَرقِ الشَّجرِ ، ويَستُرانِ ما انكشفَ منَ عَوراتهماَ .

ويَسيرُ آدمُ وزَوجُهُ فى الجَنة حَائرينِ عَارِيين يَستتران بأوراقِ الشَّجرِ ويُفكران فى صَمْت حَزين .

ماذا يَقولُ آدمُ لرَبه ، وكيفَ يعتذرُ عن ذَنْبه ؟

ونَاداهُما ربهما من عليائه : ألم أنَهكُما عن تلكما الشَّجرةِ وأقُلْ لكما إن الشَّيطانَ لكما عَدوٌ مُبينٌ .

قالَ آدمُ وزوجُه فى استرحام وانكسار : ربنا ظَلَمنَا أنفُسنا ، وإن لَم تغفر لنا وتَرْحمنا لنكوننَّ من الخَاسرينَ .

قال اللهُ : اهبطا من الجَنَّة جَميعاً ، بعضكُم لبعض عَدوٌ . وهَبطَ آدمُ إلى الدُّنيا ليْعمرها ، وكَانتْ حَوآءُ تلدُ فى كُلِّ بطَن وَلداً وبنتاً ، ويكبرُ الأولادُ وتكبرُ البناتُ ، ويَرى آدمُ بفطرته أن يُزوجَ فتَى البطن الأول من فتاة البَطن الثانية ، وأن يُزوجَ فتاة البطن الأولى من فتَى البطن الثانيةَ ، حتىَ لا يَضعفُ الجنسُ البَشرىّ ، وحتى لا تَفْترُ العاطفَةُ بين الزَوجِ وزَوجه .

وأصبحَ هذا النظامُ الذى اتبعه آدمُ دُستوراً سَارياً وقَانوناً يُعْملُ به ، وعَاشَ الجميعُ فى وِفَاقٍ وسَلامٍ حتى جَاءَ الدَّورُ على الأخوينِ قابيلُ وهابيلُ .

كانَ قابيلُ مُتعلقاً بتوأمته الحَسناءَ ويُريدُ أن يتزوجها هو ، وكانَ يرفضُ أن يتَزوجَ من توأمة أخيه هَابيلُ غيرُ الحسناء ، وتَدخَّل آدمُ ليضعَ الحقَّ فى نصابه ويُردَّ للقانونَ سيادته .

ولكنَّ قابيلَ كانَ عَنيداً شديداً ، وركبَ رأسْهُ . . لن يتزوجَ من توأمة أخيه .

وكادتْ أن تكونَ فتنةٌ بين الأبناء وبين الأبِّ الرَّحيمِ بأولاده ، وحار آدمُ كيفَ يفصلُ فى هذا النِّزاع ؟

واتجهَ إلى الله يسألهُ الهدايةَ ويسألهُ النَّجاةَ .

فألهمهُ اللهُ أن يدعو ولديه إلى الإحْتكام لأمْر الله ، وأنْ يتقربا إلى الله بالأعمال الصَّالحة ، فيُقَدمَ قابيلُ قُرباناً من زَرعَه ، ويُقدمُ هابيلُ قُرباناً من غَنمَه ، والفوزُ بالحَسناءَ يكونُ لمنْ يتَقبَّلُ اللهُ قُربانهُ .

وقدَّمَ الأخوان قُرباناً ، فتقبَّلُ الله من هَابيلَ ولم يَتقبلُ من الآخَر ؛ فكانتْ الجميلةُ منَ حَظِّ هَابيلَ .

واحترقَ قابيلُ غيظاً وامتلأ قَلْبهُ حقْداً ، وهَاجَ ومَاجَ وركبَ الشَّيطانُ رأسَهَ ، وصاحَ فى أخيه ـ فى نَوبَةِ غضبه :

لأقتلنكَّ . . لأقتلنَّكَ . .

فقالَ هابيلُ فى تَودُّد : يا أخى إنما يتقبلُ اللهُ من الصَّالحينَ ، ولَئن بَسَطتَّ إلىَّ يَدكَ لتقتلنىَ ، ما أنا بباسط يدى إليكَ لأقتلكَ إنى أخافُ اللهَ ربَّ العالمين ، إنى أريدُ أن تَبُوء بإثمى وإثْمكَ فتكونَ من أصحاب النَّار ، وذلكَ جَزاءُ الظَّالمينَ .

كانَ هَابيلُ شاباً قوياً شديدَ البَأسِ ولكنَّهُ كان يُحكِّمُ عَقْله فى نَفسه ، وكان يَخْشَى غضَبَ الله .

بينما كانَ قَابيلُ ثائراً هَائجاً مُغْتاظاً ، يريد أن يُدَّمرَ كُلَّ شىءٍ . . فى سَبيلِ الوُصول إلى غَايته .

قَالَ قابيلُ : جَزاءُ الظالمينَ ؟! . . أجعلتنى من الظَّالمينَ أصحَابَ النَّار ، تالله لأقتلنكَ لأكونَ كما زَعمتَ من الظَّالمينَ !

وطَاشَ عقلُه فَضَرب أخاهُ ضَربةً قويةً بحديدة كانتْ معهُ فأوقعهُ أرْضاً . وهُنا أفاقَ قَابيلُ على أنَّات أخيه هَابيلُ ، وعلى لَون الدِّماء الحارة وهى تَسيلُ على الثَّرى الطَّاهرَ .

جَثَى قابيلُ على ركبتيه يُحركُ أخاهُ ، ولكن لا حَراكَ ، ويُكلمهُ ، فلا جَوابَ ! !

هُنالكَ صَرخَ صَرْخةً مُدوِّيةً ، اهتَزَّ لها الكَونُ ، وردَّدَها الصَّدى ، وسَمعَهَا اللهُ فى عَلَيائه .

كانتْ صَرْخةُ نَدم هَائلة ، وكان يَجرى هُنا وهُناكَ فى ذهُول وجُنون . . ماذا يفعلُ ؟

بل ماذا فَعَل ؟!

انطلقَ قابيلُ مُولولاً وبَاكياً . . يَدُور فى المكان حَائراً ، ووَسْطَ دُموعه كان يُفكرُ : أأتركُه وأذهَبُ ؟ ولكن كَيفَ أتركُ أخى وما تَعوَّدتُ فِراقَهُ ؟!

أألقيه فى اليَّم ؟! . . كيفَ ؟!

آه . . أتركُهُ هُناكَ عند سَفْحِ الجبلِ .

لا . . لا . . سيكونُ أخى طُعمةً لَلسِّباعِ والنُّسورِ الجياعِ .

يا وَيلتى . . ماذا أفعلُ ؟!

لاحقتُه عَذاباتُ النَّفس وأوجاعُ الضَّمير ، وحاصرتُه الفَضيحةُ فاحتملَ قابيلُ أخاهُ على ظَهره وسَارَ به فى الأرض حَيرانَ ، يَجترُّ النَّدمَ ويُعذبهُ الضَّميرُ ، ويَحترَّقُ أسىً على فراق أخيهَ .

تَنقَّلَ قَابيلُ من أرض إلى أرض حَاملاً أخاهُ على ظَهره ، يقضى نهارَهُ فى حيرة ونَدم ، ويَبيتُ لَيلَهُ فى همٍّ ونكَد .

يومٌ بعدَ يوم ، والجثةَ تَنبعثُ منها رائحةٌ لَا تُطاقُ . وضَاقَ صَدْرُ قابيلُ ، وراحَ يطلبُ من الله العَفْوَ . . يا ربُّ أينَ المَفرُّ ؟

جَلسَ قابيلُ فى جَزع شَديد ، واستسلام وضيْق ، وإذ به يَرى غُرابين أسودين يتنافسان على طعَام من خَشَاش الأرض .

كان قابيلُ يُسَرِّى عن هَمِّه بالنَّظر إليهما ، وفَجأةً راحَ الغُرابان يَتَشاجران ، وينْقُر أحد الغُرابينَ أخاهُ بمنقاره نقرةً قَويةً فيرديه قَتيلاً ثمَ يدورُ حَولَهُ فى حَيرة ، ويَجثُو على الغُراب القتيل كأنَّما يبكيهَ ويَرْثيه ، ثُمَّ راحَ الغُرابُ يحفرُ فى الأرض حُفرةً ويدفنهُ فيها ويُهيلُ عليه

التُّرابَ .

وقَفَ الغُرابُ لحظةً ثُمَّ طَارَ واختفَى .

كان قَابيلُ يُشاهدُ هذا الحَدثَ واجماً سَاهماً ، ويَتذكرُ ما فَعلهُ هو بأخيه ، وما فَعلُه الغُرابُ بأخيه الغُرابُ ، والتفتَ إلى جُثَّة أخيه وانفَجرَ باكياً . . و يردد فى حَسْرة هائلة :

ـ يا وَيلتى . . أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغُرابِ فأوارى سَوْأةَ أخى ؟!

وحَفَر قابيلُ حُفرةً ، ودَفَنَ فيها أخاهُ ، وجَلسَ على قَبره يرثيه ويَبْكيه ، ثُمَّ مَضَى فى طَريقه مُحَطَّمَ الخُطَى .

« نوح والطوفان »

كانَ الناسُ يعبدونَ اللهَ كما عَلَّمهُم أبوهُم آدمُ ، فلمَّا مَاتَ آدمُ وطَالَ بهمُ الأمَدُ ، شَغَلهُم المعَاشُ وطَلَبُ الرِّزق عن دينهم وعبادَتهم ، فَرؤا أن يعملوا تَماثيلَ وأصْناماً رُمُوزاً تُذكرهَم باللَه ، ثُمَّ غَالُوا فى صناعتها وتَخيلُوها صُورةَ الله . وكان اعتقادُهُم فيها أنَّها سَبيلٌ يُقَرِّبهُم إلى الله ، وقَالُوا : ما نعبَدهُم إلا ليقربونا إلى الله .

وألْهتهمُ الدُّنيا عن مَعْرفة عَظَمة الكَوْن ، وعَظَمة الخَالق وتقديره حَقَّ قَدره ، وعبادته وَحْدَهُ دُونَ واسطَة أو شَريك .

وعندَما أغْطَشَ الجَهلُ بَصيرتهَم وأعْمىَ أبصَارْهُم ، راحُوا

يُقدسونَ تلكَ التماثيل والأصنام التى صنعوها بأيديهم واتخذوها آلهةً يرجُون منها الخيرَ ، ويَستدفعونَ بها الأذى والشَّر ، وسَمُوها بأسماء شَتَّى . . وَدّاً ، وسُواعَ ، ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرا . . وهكَذا آلتْ حَياتهُم إلى ضَلال وكُفْر . لا إلهَ ، ولا إيمانَ ولا أمانَ . . وشَاعَتْ فيهمُ الفاحشةُ وَخيانةُ الزَّوجات لأزواجهنَّ ، وعُقوقُ الأولاد لآبائهنَّ .

فأرْسلَ الله إليهم نُوحاً ـ عليه السَّلامَ ، وكانَ رَجُلاً حَليماً رزيناً فصيحاً ، يُحدثُ النَّاسَ بوعْى وحكْمة ، ويُصْغى إليهم بوَعْى وصَبْر .

أوْحَى اللهُ تعالى إلى نُوحٍ أن يَهْد قَوْمهُ إلى طَريق الإيمان بالله وأن يُحذرهُم عاقبةَ الشِّرك بالله ، ويَحُثَّهم على الاستغْفار والرَجُوعَ إلى الله . وراحَ نوحٌ يُحدثُ النَّاسَ فى مُنتدياتهم ومَزارعهمَ ، ومتَاجرهم ويُبينُ لهم عَظمةَ الخَالق ، وأنه أبْدعَ الكَوْنَ ، وخَلَقَ الخلائقَ وَرفعَ السَّماءَ بغير عَمَد ، وسَوَّى الأرضَ وأنزلَ الغَيْثَ وأنْبتَ الزَّرعَ .

ويَدعُوهُم إلَى الاستغفار والرُّجوع إلى عبادة الله وَحْدهُ ، وتَرْك عبادة الأصْنام ، كانَ نوحٌ يقولُ : يا قومُ استغفَرواَ ربكَّم إنهُ كانَ غفاراً يرسلَ السماءَ عليكم مدراراً ويُنزلُ عليكم المطَر من السَّماء ، ويباركُ لكم فى الزَّرع ، ويُمددكُم بأموال وبنينَ ، ويَجْعلُ لكَم حَدائقَ ويجعلُ لكم أنْهاراً . .

وكانَ النَّاسُ يسخرونَ منهُ ، ويهزؤنُ به ، ويعاندونَ ويُكابرونَ . . بل إنهم كانُوا يَضَعُون أصابعهم فى آذانهم حتى لا يَسْمعوا لنُصْحه ،

ولا لدعوته .

وكانَ نوحٌ يَحزنُ ويتألَّمُ ، ولكنه كان صَبُوراً ، وكانَ يُشفقُ عليهم ويدعوهم ليلاً ونهاراً لعلَّهم يهتدون ، ويخشى أن ينزل اللهُ عليهم عقاباً من السَّماء .

وآمنَ مع نوحٍ نَفَرٌ قليلٌ من الضُّعفاء والفُقراء ، وكان القَومُ يسخرونَ منهم ، ويأنفُونَ أن يجلسوا مع هَؤلاء البائسينَ .

ويستمرُ نوحٌ في دعوة قَومه لعلَّ قُلوبهم تَرِقُّ أو مَشاعرهُم تَلينُ ولكنهم ضَاقُوا به وقَالوا في ضَجَرٍ :

ـ يا نُوحُ قد جَادلتَنا ، فأكثرتَ جدالنا ، فائتنا بما تَعدُنا إن كُنْتَ من الصَّادقينَ » .

ويكْظمُ نوحٌ غَيْظهُ ، ويُجادلهم بالحُجة وبالحكْمة والمَوعظة الحَسنة لعَلَّ عُقولَهُم تتفتحُ ولكنَّهم يَردُون عليه بُسَخريةٍ :

أنُؤمنُ لكَ واتْبعكَ الأرزلونَ ؟ . . كيفَ نَرْتضى ديناً يُسوِّى بين الأغنياء والفُقراء ، يا نوحُ لَئن لم تَنْتَه عن هَذا الإلحاحِ في دَعوتكَ لرجمناكَ وخَلَصْنَا منكَ ومن قُبْحكَ !

عَشراتُ الأعوام تَمُرَّ على نُوح وهُو يَدْعُو قَومَهُ إلى الاستغفار والعَودة إلى عبادة الله ، ولَمْ يزدهُم هذا إلا جُحُوداً ونُكْراناً ، كأنَ قُلُوبهم حَجارةً أو أشَدَّ قَسْوةً . حتى زَوْجَته كانتْ خَائنةً ، وكان وَلَدُه جَاحداً كَافراً .

ورأى نوحٌ بعد مئات السِّنينَ من الدَّعوة أن لا فائدةَ من هؤلاء الجَاحدينَ ، ولا خَيْرَ فيهم ولا فى أبْنائهم فرفع يديه إلى السَّماءِ فى سَاعةِ يأسٍ وغَضَبٍ وقال :

ـ « ربِّ لا تَذَر على الأرضِ من الكافرينَ ديَّاراً ، إنكَ إن تَذَرهُم يُضلوا عبادكَ ، ولا يَلدُوا إلا فاجراً كَفَّاراً ، ربِّ اغْفر لى ولوالدىَ ولمن دَخَل بيتى مُؤْمناً ، وللمؤمنين والمُؤمناتِ ، ولا تَزِد الظالمين إلا تَبَاراً » .

وأوحَى اللهُ إلى نوحٍ أن يصنعَ سَفينةً ، بعيداً عن شاطئ الماء ، وأن ينتظر حتى يأذن اللهُ له بركوب السَّفينة هو والذين آمنوا معهُ . ورأى القَومُ نوحاً وهو يصنعُ سفينةً على اليابسة ، فراحوا يسخرون منه ويتهكمونَ عليه ، ويَتَّهمونهُ بالجنُونِ .

وتَمْضى الأيامُ ونوحٌ يَجمعُ زوجين من الطيرِ والحَيوانِ والوَحشِ والنَّبات ، فالعالمُ سَيفنى إلا ما يحملهُ نوحٌ فى السفينة ، ليبدأ بعد ذلك عَالَمٌ جَديدٌ غيرُ فَاسدٍ .

كانَ نوحٌ يجتمعُ فى دَارِه بالذين آمنوا بدعوته ، ويُخبرهم أن غَضَبَ اللهِ على قومه آتٍ قريباً فليصبروا ولينتظروا ، وكانت زوجةُ

نوحٍ تسمعُ هذا الكلام ثم تخرجَ وتبلغهُ قَوْمَها فيَسخرونَ ويضحكون ويتهمونَ نُوحاً بالجنونِ .

وحانَ مَوْعدُ نُزُولِ العَذابِ ، فتفجرتْ المياهُ من الأفرانِ ، وقامَ نوحٌ يَجمعُ شَمْلَ الذين آمنوا معه ويأخذُ فى سفينتهِ زَاداً ومتاعاً ، ويضع فيها من كُلٍّ الكائناتِ زوجين اثنين .

وهَبَّتْ العواصفُ ، وانْقلبَ الجَوُ ، ونَزَلتْ الأمطَارُ من السَّماء سُيولاً ، وتَفجرَّتْ المياهُ من الأرض ينابيعَ والتقى الماءُ على أمرٍ قَدَّرَهُ اللهُ .

وفَزِعَ القومُ ، وغَرقَ الكافرونَ ، وبدأتْ السَّفينةُ ترتفعُ فوقَ الماءَ وتتحركُ ، ورأى نوحٌ ابنهُ يَصْعدُ الجبلَ خَشيةَ الغَرق ، فناداهُ : يا بُنى تعالَ اركْبْ مَعنا ولا تكنُ مع الكافرين . . فصاحَ الولدُ : سآوى إلى جَبلٍ يعصمنى من الماء :

صاحَ نوحٌ مُشْفقاً : يا ولَدى لا عَاصِمَ اليَومَ من أمْرِ اللهِ . . اركْبْ مَعنا . .

كان الناسُ فى فَزعٍ والطُوفانُ يكْتسحُ كُلَّ البَشرِ ويُدمرُّ كُلَّ شَيءٍ

والأمواجُ هائلةٌ كالجبال . . ونوحٌ يَرىَ من فَوق السَّفينة إبنهُ يصارعُ الموتَ ، فيتصدع قلبه حُزناً على ولده العاق ويُنادى ربهُ : يارب إن ابنى من أهلى وإن وَعْدكَ الحقُّ .

. . وَعدتنى يا ربُّ أن تُنْجينى أنا وأهْلى ومن مَعىَ . . فيسمعُ نوحٌ رَدَّاً كأنه رَجْعُ الصَّدى : يا نوحُ إنهُ لَيْس من أهلكَ . . إنه عملٌ عَيرُ صالح .

ويَحُولُ المَوجُ بين نوحٍ وابنهُ ، فيغرقَ مع الغَارقينَ .

وتَمضى السَّفينةُ فى موحٍ كالجبال إلى بلادٍ أخرى بعيدةٍ، ثم يأتى النداءُ من الله . .

« قيلَ يا أرضُ ابلعى ماءَك ويا سَماءُ اقلعى » فيتوقفُ المَطرُ، ويغيضُ الماءُ فى الأرضِ ، وتستوى السَّفينةُ على الجُودىِّ جبل) ويخرجُ نوحٌ والذين آمنوا معهُ من السَّفينةِ، وتَخْرجُ الكائناتُ ، لِيْبدأ العالمُ من جَديدٍ . .

قصة سيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ والنمرود

كَانَتْ « بَابلُ » بَلْدةً طَيِّبةً يَأتيها رزْقُها رَغَداً من كُلِّ مكان، وكَانَ أهْلُها يَعيشُونَ فى رَغَد من العَيْش ، وَطَيِّبات من الرِّزْق، وكانَ يَحكُمُ هَذه البَلْدة مَلكٌ غَاشمٌ ، جَائرٌ . هو «نَمْرودُ بْن كَنْعان » .

وكان النَّاسُ ـ وَقْتَها ـ يتَخَبطُونَ فى ظُلمات الجَهْل والوَهْم . فهمُ تَارةً يَعْبدوُن الحاكمَ الطَّاغيةَ ويركَعُونَ له ويُسَبِّحونَ بَحَمده ، وتارةً يَعْبدونَ الأصْنام الجَاثيةَ ويَسجدونَ لها بُكْرة وعَشياً ؛ فهم بَين عبادة الملك وعَبادة الأوْثان عَاكفونَ سَاجدونَ .

وفى هَذه المملكة الفَاسدة وُلدَ ابراهيمُ ـ عليه السَّلام .

كان أبوه « آزَرَ » نجَّاراً ، يَنْحتُ التَّماثيلُ من الخَشَب ، ثم يَتخَّذها هُو وقَوْمهُ آلهةً . ونَظَر ابراهيمُ ـ الغُلامُ ـ إلى ما يَصْنعُ أبوه وقَوْمهُ ، وفكَّر وقدَّرَ ، ولكنه حَارَ فى فكْره ، وراحَ يسألُ نَفْسهُ :

« إنَّ هَذه التَّماثيلُ التى يَصْنعُها أبى لا تَضرُّ ولا تَنْفعُ . . فكيفَ يتخذونها آلهَةً ؟! بلَ كيفَ نَسْجُد لها ونركعُ ، ونَبْتهَلُ لها ونَخشعُ ؟! إن أبى يصنَعُها بيده ، ويَحملها بيده ، ثم يَبيعُها للنَّاس !! . .

هذا وَهْمٌ كبيرُ وضَلالٌ مُبينٌ ! »

خرجَ ابراهيمُ ـ وقد آتاهُ اللهُ رُشْدَهُ ـ إلى الصَّحراء ، يَنظرُ فى الطَبيعة ويتأملُ فى الكون فيرى عَجَباً ؛ جِبالاً شَاهقةً ، وأشْجاراً باسقة ، وأنهاراً وأطياراً

وعادَ يسألُ نَفْسهُ :

« من الذى خَلقَ كُلَّ هَذه الأشْياء ؟ ومن الذى أوجَدها ؟ . . لا يُعْقلُ طبعاً أن تكونَ تلك التَّمَاثيلُ الخَشبيَة التى يصنعُها أبى آلهةً ؟! . .

إنها عَاجزةٌ حتى عن أن تَدْفعَ عن نَفْسها الأذى والسُّوءَ! »

وبَاتَ ابراهيمُ يَنْظُر فى السَّماء حَائراً مُفكِّراً ، وبَغْتةً[1] هتَفَ من أعماقه عندما رأى كَوكْباً ساطعاً ، وقَالَ بفطرته النَّقية : هذا ربِّى ! ! ولكنْ لَم تمض ساعاتٌ حتى غَابَ الكوكبُ وأفَلَ . فَحزنَ ابراهيمُ وقالَ : ليس هَذا ربىٌ . . إن ربى لا يَغيبُ أبداً . وفى ليلة أخرى رأى ابراهيمُ القَمر بازغا فصاحَ هَاتفاً : هَذا ربى . . هذا أكْبرُ ! ولكن سرعان ما غاب القمرُ واختفى .

فَوجَمَ ابراهيمُ وحَزنَ وقالَ : كلاَّ ، هذا ليسَ ربِّى . إن ربى لا يغيبُ ولا يَأفُلُ . وفى الصَّباح رأى الشَّمسَ بازغةً وكبيرةً ، فهتفَ بفرَحة : لابُّد أنَّ هذا ربى . وجَاء المساءُ ، واختفتْ الشَّمسُ وراءَ الأفُق .

وهنا أدركَ ابراهيمُ أن هذه الأشْياءَ التى رآها مُجرد

---

(١) بغتةً : فجأةً

مَخلوقات ، وأن هذا الكونَ العظيمَ الهائلَ بما فيه من السَّموات والأرض ، والكواكب والنُّجوم ، هو من صُنْع الله العزيزِ الحكيمِ .

وهَتفَ ابراهيمُ من أعماق نَفْسه قائلاً :

« يا قَوْم إنى برىء مما تُشْركونَ ، إنى وَجَّهتُ وجهى للذى فَطَرَ السَّموات وَالأرضَ حَنيفاً وما أنا من المُشْركينَ ، إن صلاتى ونُسُكى ومَحْياى وَمَمَاتى لله رب العالمين » .

اهْتدىَ ابراهيمُ إلى رَبه وخَالقه ، وخَشَعَتْ جَوارحُهُ ، وامتلأتْ نَفْسه ثقةً بالله ، ويقيناً بقدَرته علَىَ بَعْث النَّاس بعد مَوْتهم وحسَابهم على أعْمالهم . لكنَّهُ أرادَ أن يزدادَ إيماناً عَلى إيمَان ، ويقيناً على يَقينَ ، فتوجَّهَ إلى رَبِّه يسألُه باسْتحياء وأدب : « ربِّ أرنى كَيفَ تُحْىِ الموتىَ ؟

فقال اللهُ له : أوَلَمْ تُؤمن ؟

قال ابراهيمُ : بَلَىْ . . ولكنْ ليطمئنَّ قَلْبى .

قال رَبُّهُ له : فَخذْ أربْعةً من الطَّير ، فاذْبَحها وقَطِّعها ، واخْلطها ببعضها ، ثُمَّ اجْعل على كُلِّ جَبل مَنْهُنَّ جُزْءاً . ثُمَّ نادِ هذه الطيُّور ـ التى صَارتْ أشْلاءً ـ تجدها تأتى إليكَ سَاعيةً ، واعلمْ يا أبراهيمُ أن اللهَ عزيزٌ حكيمٌ .

وفعلَ ابراهيمُ ذلكَ ، ورأى بعينه قدُرةَ الله على البَعْث والإحياء بعدَ الممَاتِ فاطمأنَ قَلْبهُ ، ورسَخَ الإيمانُ فى نفسه .

---

(١) مفعماً : ممتلئاً

عَادَ ابراهيمُ من سياحَته فى الكَوْن مُفْعَماً [1] بالإيمان والنَّشَاط والقُوة ، وأرادَ أن يدعُو النَّاسَ إلى اللهَ ـ خالقُ الكونَ ـ وأنَ يُرْشدهَمَ إلى طريَق الهُدى والنُّور ، وعَزَّ عليه أنَ يكونَ أباهُ « آزرَ » ـ وهو أقْربُ الأقربيَن إليه ، وأحبُّ النَّاس إلى قَلْبه ـ فى ضَلال مُبين . فاتَّجهَ بدعوته أوَّلَ مَا اتجَّه إلى أبيه . وَتَلطَّفَ فى الحَديث إليَه ، فقَالَ ابراهيمُ لأبيه بَصَوت كُلُّهُ حَنينٌ وأدبٌ :

« يا أبتِ . . لمَ تَعْبدُ مالا يَسْمعُ ولا يُبْصرُ ولا يُغْنى عنكَ شَيْئاً ؟

« يا أبتِ إنى قد جَاءنى من العلْمِ ما لم يأتكَ ، فاتَّبعنى أهْدكَ صراطاً سَوياً .

« يا أبتِ لا تَعْبد الشَّيطانَ ، إن الشَّيطانَ كان للرحمنِ عَصياً »

« يا أبتِ إنى أخَافُ أن يَمسَّكَ عَذابٌ من الرحمنِ فتكونَ للشيطانِ وَلِّياً »

فردَّ عليه أبوه بشدَّة ، وقد احترقَ غَيْظاً ، وانفجرَ غَاضباً :

« أراغبٌ أنت عن آلهتى يا ابراهيمُ لئن لم تَنْته لأرجمنَّكَ واهْجرنى مَلِيّاً »

وهنا حَزنَ ابراهيمُ حُزْناً شَديداً ، وتَقَطَّعتْ نَفْسُه حَسرَات على غواية قَوْمه ، وضَلال أبيه ، وقالَ لأبيه بلسان المَودَّة والرَّحمة :

« سَلامٌ عليك يا أبَتِ ، سأستغفرُ لكَ ربِّى ، إنه كانَ بى حَفيّاً ، واعتزلكمُ وما تَدْعونَ منَ دُون الله ، وأدعُو ربِّى عَسى ألا أكونَ بدعُاء

(١) لدنه : من عنده . (٢) الوَجوم : الحزن .

ربِّى شَقِّياً وعندئذٍ وَدَّعَ ابراهيمُ أباهُ وانصرفَ من لَدُنْهُ واجِماً وَانياً حَزيناً .

واتجَّهَ ابراهيمُ إلى قَوْمه يَدعُوهم إلى الله ، ويَحثُّهم على التَّفكُر فى الكَوْن ، ويستدرجُهمُ ـ مَنَ حيثُ لا يَشْعُرونَ ـ إلى غَايته النَّبيلة ، وَهى تسفيهُ ما يعَبدونَ من أصنامٍ وأحْجارٍ ، وإزالةِ الضَّلالَ الذى رَانَ على قُلوبهم وعُقُولهم .

فَسألهم : ماذا تَعْبُدونَ ؟

فقالوا فى اعتزاز وفَخْرٍ : نعبدُ أصْناماً فنَظلُّ لها عاكفينَ .

فعادَ يسألُهُم بذكاءٍ وعِلْمٍ : هل يَسْمعونكُم إذ تَدعونُ ؟ أو يَنفعُونكم أو يَضُرُّونَ ؟

فَرَدُّوا فى صَلَف (١) وعناد : وجَدَنا آباءنا لها عابدينَ !!

فقال ابراهيمُ : « لقد كنتُمُ أنتمُ وآباؤكم فى ضَلال مُبين .

فاغتاظَ بَعضُهُم وصَاحَ ساخِراً مُسْتنكراً : أجئتنا بالحقِّ . أمْ أنتَ من اللاَّعبينَ ؟

فقال ابراهيمُ : « بل رَبكُّم ربُّ السَّمواتِ والأرضِ الذى فَطَرهُنَّ ، وأنا على ذَلكمُ من الشَّاهدين » .

وأخيراً تَركهمُ ابراهيمُ قائلاً فى تَحَدٍّ : « وتالله لأكَيدنَّ أصنامكُم بعد أن تُولُّوا مُدْبرينَ !! » .

---

(١) صلف : غلظة .

وأدركَ ابراهيمُ أن هَؤلاء القَوم ـ بحالهم هذا ـ لا يُجدى مَعهُم حِوارٌ ، ولا ينفع مَعهمُ نُصْحٌ . إذنَ لا سبيلَ إلا المُصارحة ، والمواجَهة .

فأعلَنَ على الملأ عقيدتُه الخَالصةَ ، وبراءتَهُ مما يَعبدونَ ، فقالَ :

« يا قوم . . إنّى برىءٌ مما تُشْركونَ ، أفرأيتُم ما تَعبدُونَ ، أنتُمُ وآباؤكم الأقْدَمُون ، فإنَّهمُ عَدوٌ لى إلاَّ ربَّ العَالمينَ ، الذى خَلقنَى فهو يَهْدينى ، والذى يُميتنى ثم يُحْيينى ، والذى أطْمعُ أن يَغْفر لىَ خَطيئتى يَومَ الدِّين » تَرَقَّبَ ابراهيمُ القَومَ حتى فَرحُوا جميعاً فى يَومِ عِيدَهم ، ولمْ يَبْقَ فى المدينة إلا هو ، ثم توجَّه إلى المعَبد . .

كانَ المعبدُ خَالياً إلا من التماثيل والأصْنام والآلهة الخَشبية !! ، ورأى ابراهيمُ الطعامَ المُقَدم قُرباناً لهذه التَّماثيلِ ، فتبسَّمَ ساخراً ، وقالَ مُتهكماً :

ـ ألا تأكلُونَ ؟!

فلم يَردَّ عليه أحَدٌ ـ طبعاً إنها هياكلُ خَرْسَاءُ صمَّاءُ ! .

فعادَ يسألها بنفس السُّخرية : ما لكم لا تَنْطقونَ ؟!

كان صَوتُهُ مُدَوِّياً فى أركان المَعْبد ، حيثُ لا يُسْمَعُ إلا الصَّدَى .

وهنا ثَارَ ابراهيمُ ثَورتهُ العُظْمى ، وإنهالَ على الأصْنام ضَرْباً باليَمينِ ، فحطَّمها وكَسَّرها وجَعلُهم جُذَاذاً إلا كَبيرهمُ ، تركَهُ سَليماً

بعد أن علَّق الفأسَ فى رأسه، وخرجَ مُكبِّراً لله .

ورجَعَ القومُ إلى المدينة ، ودَخلوا مَعْبدَهُم ، فَراعَهُمُ المَشْهدُ وزاغتْ أبصَارُهمُ من هَوْل المَوقفْ .

الآلهة التى يَعبدونَهاَ ويَسْجدوُنَ لها تَحطَمتْ تَحطيماً . . إلا واَحداً !! .

واستَبدَّ بهمُ الجنُونُ والعَمَهُ[1] ، فقالَ بعضهمُ : مَنْ ذاَ الذى فعلَ هذا بآلهتنا ؟ إنهُ لمن الظَّالمينَ !!

وردَّ آخرينَ : سَمعنا فتىً يذكُرهُم بسُوء ؛ يُقالُ له ابراهيمُ . فصَاحُوا صياحَ المُنتقِم : فأتُوا به على أعْيُن النَّاسِ، لعلَّهمُ يَشهدُونَ .

عَرفَ القَوْمُ أن ابراهيمَ هو الذى فَعلَ تلكَ الفعْلة بألهتهم، فقد حَاورهُم قبل ذلكَ وناظَرَهُمْ ، وسفَّهَ أحْلامَهمُ، وعَابَ عليهمُ دينهُم . واجتمعَ النَّاسُ ، وتكاثَرتْ الجمُوعُ ، وجَلسَ الزُّعماءُ لمحاكَمة هذا الشَّاب المَارق الذى حَطَّمَ الآلهةَ !! ووجَدهَا ابراهيمُ فُرْصتهُ المَنشُودةَ فى مناظَرة أكابَر القَوم على مَلأ من المدينة . . لعلَّهم يَهتْدونَ .

كانَ المَوقفُ عَصيباً . المدينةُ برَجالها ونسائها وشُيوخها كلُّهم يقفُ نداً لإبراهيم ، وابراَهيمُ وَحْدهُ يَقفُ ثابتاً هَادئاً واثقاً بربِّهَ .

وسألهُ زعيمُ الجَمْعْ : أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيمُ؟

ردَّ ابراهيمُ فى هُدوءٍ لم يَخلُ من سُخْريةٍ : بَلْ فعلَهُ كَبيرهُم هذا ـ

---

(١) العَمَهُ : الضلال .

وأشَارَ إلى الصَّنم الكَبير ـ فاسألُوهُم إن كانوا يَنْطقُونَ ؟!

ونظَر القَومُ إلى بعضهم فى حَيْرة وقَلَق ، وأقْبلَ بعضُهم على بَعض يتلاومُونَ ، وقالوا : إنَّكُم أنتُمُ الظَّالمونَ .

ثم نُكسُوا على رُؤسهم ، وعادُوا يُجادلونَ : لقد عَلمتَ أنَّ هَؤلاء الأصنام لَا ينطقونَ . فقَالَ ابراهيمُ وقد وَجَد الفُرصةَ سَانحةً لإيقاظهم من غَيِّهم وَجهْلهم : أفتعبدون من دُون الله مالا ينفعكُم شَيْئاً وَلا يَضرُّكم ؟! . . أفٌّ لكم ولما تعبدونَ من دُوَن اللَه أفلا تعقلون؟!

وهنا أخذتهم العزَّةُ بالإثم ، والتمادى فى الغَىِّ ، فقالوا فى غَضَب وغَيْظ : « حَرِّقُوه ، وانْصرُوا آلهتكمُ إن كُنْتمُ فاعلينَ .

وأنهوا بُسرعة تلك المحاكمةَ غَير العَادلة .

أرادَ القَومُ بعدَ أن أخفَقُوا (١) فى الردِّ ، وخَسروُا الجَولةَ الأخيرة من المنُاظَرة أن يُبَّردوا لهيبَ غيظهم ، وينتصَروا لأنفسهم . . ولآلهتهم ، وأن يَجعلُوا ابراهيمَ عَبْرةً لمن أرادَ أن تُسوِّلَ له نفسه الخُروجَ على شَريعتهم ودينهم فكوَّمُوا الحَطَب ، وجَمَّعوا البَشرَ ، وأشْعلوا النِّيرانَ ، وسُعِّرتْ الجَحيمُ .

ووضَعوُا ابراهيمَ فى المقْذاف كى يُطوِّحوا به فى السَّعير . هكذا وابراهيمُ الشَّابُ يقفُ أمامَ النَّاسِ المُحتشدة صَامداً مُرابطاً ، واثقاً بربِّه ، يذكرُ اللهَ ويَسألُه النَّجاةَ .

وجَاء جبريلُ فى اللحظة الحَاسمة يَسْألهُ : ألَكَ حَاجةٌ يا ابراهيمُ؟ .

(١) أخفقوا : فشلوا .

فقالَ : أمَّا منكَ . . فلا .

فقالَ جبريلُ : إذن سَلْ ربَّكَ .

فقالَ : علْمُه بحالى يُغْنى عن سؤالى .

وقذفوه به فى السَّعير . . وانتظروا على مَضَض [1] !!

كانتْ النيرانُ هائلةً ، تَلْفَحُ الوُجوهَ ، ويُسْمَعُ لَها تَغَيُّظاً وزَفيراً ، وتُسْقطُ فيها الطيورَ المارةَ .

لكَّن الله الذى لا تَأْخُذهُ سنَةٌ ولا نَوْمٌ كان يَسْمعُ ويَرى ، فأمر اللهُ النَّارَ : « يا نارُ كُونى بَرداً وسَلاَماً على إبراهيمُ » .

فكانتْ النَّارُ ـ بإذن الله ـ بَرْداً وسَلاماً عليه ، ومكَثَ ابراهيمُ فى النَّار آمناً مُطْمئناً لم يَشْعُر بحرٍّ ، ولا حتى بقُرٍّ [2] .

وهدأتْ النِّيرانُ بعد مُدة ، وخَمدتْ ألسنةُ اللَّهب ، وذُهلَ القَوْمُ عندما رأوا ابراهيمَ يَخْرجُ إليهِم عَفيّاً سَليماً لم يَمْسسهُ سُوءٌ .

وانبهَر بعضُ القَوم بهذه المُعجزة الكُبرى ، وقالوا آمنَّا برب ابراهيمَ . . وعَلموا أنه علَى الحقِّ المُبين ، لَكنَّهم كَتموا إيمانَهُم خوفاً من بَطْش الطُّغاة ، أعْوان الملك . علمَ النَّمرودُ ـ الملكُ الطَّاغيةُ بثورة الشَّعب على ابراهيمَ ، وانتصَار هذَا الفتى على ملأ من النَّاس ، فأيْقَنَ أن مُلْكَهُ فى خَطَر ، وأن سُلطانَه وجبروتَهُ لا مَحَالةَ إلى زَوَال . وأن دَعوةَ ابراهيمَ لابُدَّ أنها ستجدُ عند الناس آذاناً صَاغية ، وعُقولاً وَاعيةً ؛

(١) مضض : قلق . (٢) قرّ : برد .

خاصةً بعد أن رأى النَّاسُ بأعينهُم تلك المُعجزةَ الكُبرى عندئذ دعا النمرودُ ابراهيم ليُحاورهُ ويجادلهُ ـ فى مُحاولةٍ أخيرةٍ منه ـ علَّهُ يَرْجع، أو يَلينُ،

وعندما حضَر ابراهيمُ سألهُ الملكُ : ما هذه الفتنةُ التى أيقظتها أيها الفتى . . ؟ ألَكَ ربٌّ سوَاى[1] ؟

فقالَ ابراهيمُ : نعمْ . . ربِّى الذى يُحْيِي ويُميتُ ؟ فقالَ الطاغيةُ فى غُرور : وأنا أيضاً أُحيِّى وأُميتُ ! !

وأدركَ ابراهيمُ قَصْدهُ، أى أنه يمكنُ أن يَعفُو عمن يَشاءُ فيتركَهُ يحيا ويعيش، أو يحكم على من يشاءَ بالقَتْلَ . فيُقتلُ ويموت !

فقالَ ابراهيمُ فى سُرعة بَديهة وذكاء عَقْل :

« فإن اللهَ يأتى بالشَّمسِ من المَشرْق . . فأت بها أنْتَ من المغَرْب »

وهُنَا بُهتَ الطَّاغيةُ الذى كَفَر، وأعْياهُ الجَوابُ . فماذا يقولُ ؟ !

وضاقَ بإبراهيمَ المُقامُ بين قَوْمٍ جَاحدينَ، وأُناسٍ مُعاندين، فرأى أن الهِجرةَ من هذه المدينة خَيرٌ له، ولمن تَابَ وآمَنَ معهُ .

وبالله تعالى التوفيق،

❁❁❁❁

---

(١) سواى : غيرى .

قصة الفداء (ابراهيم واسماعيل عليهما السلام)

خَرجَ ابراهيمُ بقَافلته من العراق ، وتَوَّجَه هُو والذَّين آمنوا مَعهُ إلى أرض فَلَسْطين ، وَهُنَاكَ وَجدَ النَّاسَ يَعبدُون الكواكبَ والنُّجومَ من دُون اَلله .

مكَثَ فيهم ابراهيمُ مُدَّةً من الزَّمن يدعوهُم إلى الله ، ويُعرفهُم بحقيقة الكَونْ والحَياة ولكنَّهم كانوا ـ واأسَفاهُ ـ جُهلاءَ أغْبياءَ . فلا هُمْ أحْسَنوَا الفَهْم ، ولا هُم استَجابُوا إلى دَعْوته ونُصْحه . وكَفَروُا بالله ، فبَّدل اللهُ رَغَدَ عَيْشهم [1] ضَنْكاً ، وأصَابَهمُ القَحْطُ .

تَركَ ابراهيمُ الشَّامَ عنْدما فَقَد الأمَلَ فى هداية أهْلها ، أو صَلاَح أمْرهم ، وتَوجَّهَ إلى مصْر داعياً إلى الله ، سَاَعياً إلى طلب الرِّزق ، وكانتْ ترَافقُهُ فى السَّفَر زوجتُه سَارة ، وابن أخيه لُوط وزَوجته .

وكانَ يَحكُمُ مصْرَ آنئذ مَلكٌ عملاقٌ ، شَديدُ البَأس ، لا يُرَدُّ له طَلبٌ ولا يُعْصَى لَه أمْرٌ .

وعَلمَ الملكُ بنبأ الرَّكب الوَافد عَليهم من الشَّام ، وتسرَّبَ إلى سَمْعه حَديثُ النَّاس عن سَارة ، تَلك المرأةُ الفَاتنةُ الحَسناءُ . فطلبها

---

(١) رَغَدَ العَيْش : سَعَتَه .

إليه .

وهنا وَقَع ابراهيمُ فى محْنة عَظيمة ، وحَرَج شَديد ، وفكَرَّ وَقدَّرَ : « كيف يُواجهُ هذا الطَّاغيَة الذى يُريدُ أن يأخذَ منهُ زوجتهُ رَغَباً ، أو رَهَباً ؟ ! .

كانَ ابراهيمُ شديدَ الإيمان بربه ، ومُوقناً بأنَّ الذى نجَّاهُ من كَيْد النَّمرود ـ طاغيةَ العراق ـ وأعوانه ، قادرٌ أيضاً على أن يُنْجيه من كَيْد هذا الملكَ الفاجر .

واستدعاهُ الملكُ ، وسأله عن تلْكَ المرأة الحَسْناء التى تُرافقُهُ فى سَفَره ، والتى تُدْعى « سَارةُ » .

فأجابَ ابراهيمُ : إنها أختى (وهو يَعْنى أنَّها أخْتُهُ فى الدِّين ـ الاسلامُ) .

فقالَ الملكُ : ائتُونى بها أستَخْلصُها لنفسى .

ورَجعَ ابراهيمُ إلى زَوْجَته المؤمنة مَهْموماً مَغْمُوماً يُخبرها بما حَدَثَ ويَتَشَاورُ معها فى الأمْر .

وسألا اللهُ أن يَجْعلَ لَهُما من الضِّيق مَخْرجاً ، وأن يَرُدَّ عنهما كَيْد المَلك .

ذَهبْت سَارةُ إلى قَصْر المَلك كَارهةً مُكْرَهةً ، وجَلسَتْ وَاجمةً حَزينةً تُفكرّ فى الخلاص منَ هذا الطَّاغيَة الذى يُريدُها لنفسه .

ولما دخلَ عليها الملكُ وَجَدها مُتَحفِّزةً ، تَرْمُقُهُ بنظَرات حَادَّة

قَاسية، فاقتربَ منها مُلاطفاً، فجَفلتْ وابتعدتْ، وأحسَّ هو باضطرابٍ كبير، ورَعْشة شَديدة.

فتعجَّبَ، ومدَّ يَدهُ إليها يُريدُها، فَشُلَّتْ يَدهُ، وخَارتْ تماماً قُوَتُهُ، فارتاعَ المَلِكُ. وخرجَ يَهْذِى ويَصْرخُ كأنَّما أصابَهُ من الشَّيطانِ مَسٌّ.

هَرْولَ الملكُ إلى غُرفته لينامَ، ولكنْ هَيْهات [1]! فباتَ ليلتهُ قَلقاً أرقَاً لا يَجدُ للرَّاحَة طَعْمَاً، إذا أغمضتَ طَرْفهُ [2] رأى أحْلاماً مُفْزعةً، وإذا فَتَحَ عَيْنَيه رأى أشْبَاحاً مُخيفَة. فأدْركَ أن هُناكَ قُوةً أكبرُ منهُ هى التى تَحْفَظُ هذهَ المرأةُ من الاقترابَ مِنها.

وأن هذا الرجلُ الوافدُ عليهم أثيرٌ [3] عند الله رفيعُ المكانَةِ عندهُ.. فلا ينبغى إيذاءَهُ، أو الإساءةَ إليه.

وأخيراً لاحَ الصَّباحُ بعد لَيلٍ طَويلٍ، فَردَّ المَلكُ «سَارةَ» إلى ابراهيم رداً جَميلاً، وأعادها إليه عَزيزةً كَريمةً، وزادَ على ذلكَ بأن وَهَبها أموالاً كثيرةً وخيراً وَفيراً وخادمةً حَسْناءَ، أسمُها «هَاجرَ».

ثُمَ أذنَ لهم فى الإقامةِ بمصرَ ما شاءَ لهم أن يُقيموا وما طاب لَهم العَيْشُ.

وأقَامَ ابراهيمُ بمصرَ مُدَّةً هُو وآلُ بيته، واستْطاعَ بفضل سَعْيه وكَدِّه، وكَريم أخلاقه أن ينمو مالُهُ ويكْثُر خَيْرهُ. وباركَ اللَّهُ له فى أنعامهِ وزَرْعه.

---

(١) بُعداً. (٢) عينه. (٣) مُحَبَبٌ ومُفَضَلٌ.

وبعد حين رأى إبراهيمُ أن يُهاجرَ إلى الشَّامِ داعياً إلى الله ، وراعياً لأنعامه .

وتَحرَّكتْ القَافلةُ المُحملةُ بخيرات مصْرَ ، وعَبَرتْ سَيناءَ ، ثُمَّ ألقَتْ عَصا التِّرحالَ فى الأرض المقدَّسةَ ـ فى فلسطين ، بينما نزلَ لُوطٌ وآلُ بَيْته عندَ حُدودَ الشَّام ، فى قَرية سَدُوم .

وعَاشَ إبراهيمُ فى رَغَد من العَيْش هُو وزَوجتُهُ « سَارة » وخَادمتُها « هَاجَر » تلكَ الفَتاةُ المصْريةُ الجميلةُ ، هَديةُ فرعونَ مصْر .

وكانَ إبراهيمُ قد جَاوزَ السِّتينَ من العُمْر ، ولم يكَنْ لهُ وَلَدٌ ، إذ أن زَوْجتُه سَارَّة كانتْ عقيماً لا تَلدُ . وزادَ حَنينَهُ وشَوْقُه إلى وَلَد يكونُ له فى حَياته عَوْناً وسَنَداً ، وكانتْ سارةُ هى الأخرى تحنُّ إلى وَلَد تُمارسُ معَه الرِّعايةَ والأمُومةَ .

هُنالكَ قَالتْ سَارةُ لإبراهيمَ : لمَ لا تَدْخلُ يا إبراهيمُ بهاجرَ ـ تلك الأمَةُ الطَّيبةُ الشَّابةُ ، لعلَّ اللهَ يرزقُكَ منها الولدَ ، فيكونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لكَ ولها .

فقال إبراهيم مُشْفقاً عليها : أخْشى عليك الغيرةَ يا زَوْجتى الوَفِّية ! ولكنَّها ألحَّت عليه كَثيراً حتى نَزلَ على رأيها . ودَخلَ بهاجرَ فى ليلة مُباركة ، فَرزقَهُ اللهُ منها غُلاماً ذكياً ، وسَمَّاهُ « إسماعيل » .

وسَرْعانَ ما لَعبتْ الغَيْرةُ بقلب سَارةَ وعَقْلها ، فَلَمْ تَعُدْ تُطيقُ رُؤْيةَ هَاجرَ ولا إبنها إسَماعيلُ وتَوسَّلتْ سارةُ إلَى إبراهيمَ أن يأخذَ هذا الغُلامَ وأمَّهُ ويُسْكنهُما فى وَادٍ سَحيقٍ حتى لا تَراهُما .

وذاتَ يَوْم تَأهَّبَ إبراهيمُ للرحيل من الشَّام ، فخَرجَ مُصْطَحباً هَاجَر وابنهماً « إسماعيلُ » يطوفُ الأرضَ فى رِحلةٍ لا يَعْلمُ مَصيرهَا إلا اللهُ .

وهُناكَ فى وَاد غَير ذى زَرعٍ حَطَّ إبراهيمُ عَصَا التِّرحال[1] ووقفَ يتأملُ المكانَ من حَوله . .

جبالٌ وقفارٌ ، وصَحراءُ وَاسعةٌ لا أثَرَ للحياة فيها ، حيثُ لا زَرْعٌ ، ولا ضَرْعٌ [2] ، ولا أشْجَارٌ ولا أطْيارٌ[3] .

وتلفتتْ هَاجرُ حَولَها لترى المكَانَ مُوحشاً قَفْراً كأنَّهُ مَنْفَى ، فلا دَيَّارُ[4] ولا نافخُ نَار ! .

وقَفَ إبراهيمُ صَامتاً لحظةً ، يرفعُ نَظرةً إلى السَّماء ، ثُمَّ يُردد بِقلبٍ خَاشعٍ :

« رَبِّ إنى أسْكَنتُ من ذُريتى بواد غير ذى زرع عند بيتكَ المُحرمَ ، ربنا ليُقيموا الصَّلاةَ فاجعلْ أفئدةً منَ النَّاسِ تَهوى إليهم وارزقْهم من الثَّمراتَ لعلَّهم يَشْكُرون » .

كَتَمَ ابراهيمُ مشَاعرهُ وهو يُقبِّلُ زَوجَتَهُ وولدَهُ قَبل أن يُودِّعُهما ، ثم قَفَلَ راجعاً ، وتَتبعتَهُ هاجرَ وتَتعلَّقُ به مُتوسلَّةً : يا ابراهيمُ على من تَتركُنا فى هذا المكان المُوحش ؟

فيقولُ لها مُطمئناً : أتْركُكُما على ربِّى .

---

(١) حطَّ عصا الترحال : أقام بالمكان .
(٢) أى حيوان .
(٣) جمع طائر : طيور ، أطيار .
(٤) صاحب الدار

فَتغضُّ طَرفَها ، وتَمسَحُ دَمْعها مُستسلمةً لأمر الله قائلةً لـــهُ :

إذن لن يُضيعنا ، اذهب رَعَاكَ اللهُ .

ثم تَعُودُ إلى طفْلها لتحميه من وَهَجِ الشَّمس ولَفْحة الهَجير[1] .

وعَطَشتْ الأمُ ، وعَطَشَ الغُلامُ ، فَنهضتْ لتبحثُ عن ماء . فلا تَجدْ وتَتلفتُ حَوْلها فلا ترى إلا الجبالَ القاحلةَ ، وتنظرُ إلىَ جبلِ الصَّفا وقد لاحَ عليه السَّرابُ ، وهى تَحسبَهُ ماءً ، وما هُو بماء .

فتجرى هَرْولَةً حتى إذا جاءَتْه لم تجد ماءً ، فتحزنَ ثم تنظرُ إلى بَعيد فترى جَبَل المَروةَ وترى عليه ماءً . فتجرى مُسْرِعةً إلى الجبل ، وهُنَالكَ لا تجدُ شَيْئاً !

سَبْعةُ أشْوَاط متعبة تجريها هاجرُ بين جَبَلى الصَّفَا والمَرْوة باحثةً عن ماء لتسقى غُلامهَا وترتَوى ، فلا تجدُ إلا السَّرابَ الخادع .

وأخيراً عَادتْ هَاجَرُ إلى طفْلها بائسةً ، مُستَسلمةً لقَضَاء الله بَعْدَ هذا الضَنَّى [2] ، وضَارعةً إلَى الله تَسألهُ النَّجاةَ ، وَالطفْلُ جَنبها يتلوى ويَصرخُ من العَطَشِ ، ويضربُ الأرضَ برجليه .

وهنا يأتى الغَوْثُ .

تنبعُ المياهُ من تحت قَدمى الطِّفل رَقْراقةً صَافيةً عَذْبةً . فَتسقى صَغيرهَا ثُم تشربُ ، وَتَحْمد اللهَ .

وتلمُّ بيديها الماءَ خَشْيَةَ أن يَضيعَ فى الأرضِ ، وتقولُ : زِمّ يا

---

(١) الهجير : شدة الحر وقت الظهيرة . (٢) الضنى : الشوق والتعب .

ماءُ . . زمّ يا ماءُ ـ فكانت هذه « عَينُ زمزمَ » .

وتُحَلِّقُ الطَّيرُ فى جَوِّ السَّماء ، وتُحَّومُ على مَاء زَمْزمَ، ويرى العَربُ من بعيد أن طيراً تحُومُ ، ولا تحوِّمُ الطيرُ غالباً إلا على ماء . فوردُوا الماءَ . واستأذنُوا صاحبةَ العَيْن فى الإقامة بجوارها ، والشُّرْبَ من مائها ، فأذنتْ لهمُ ، وعاشُوا جنبهَا آمنين .

ونَما الغُلام واشْتَدَّ عُودُهُ ، ولَعِبَ مع الأولادِ فى البَادية ، وتَكَلَّمَ بلغتهمُ العَربيةَ .

كانَ ابراهيمُ كُلَّما حَنَّ إلى رُؤْية هَاجَر وولده « اسماعيل » يَشدُّ الرِّحالَ قاصداً مكَّةَ ، حَيْثُ يقضى وَقتاً طَيِّباً مع زَوْجته وولده .

وذَاتَ لَيلة رأى ابراهيمُ ـ فى منَامه ـ أنَّهُ يذبحُ ولدَهُ إسماعيلَ ، ورُؤيا الأنبياء تكليفٌ ، وهو نبىٌّ ، وَخَليلُ الرحمنِ ، وأصبحَ فى همٍّ وغمٍّ وحَيْرة مَن أمْره !

كيف يذبحُ بيديه ولَدَهُ الوحيدَ وفَلْذَةَ[1] كبده ؟!

وكيف يُوارى جُثَّتَهُ التُّرابَ ؟! .

يا ربُّ رُحماكَ ، هذا قَضاؤُكَ ، ولا رادَّ لقضَائكَ . . ولكن ربِ أسْألُكَ اللُّطفَ فيه .

وانْتحى[2] ابراهيمُ بولده طَريقاً بعيداً ، والولدُ فى غَمْرة السَّعادة يحكى لأبيه عن لهوه ولَعبهَ ، وعن أصدقائه الصِّغارِ ورِفاقه الذينَ يُحبهمُ كما يُحبونَهُ .

---

(١) فلذة : قطعة . (٢)وانتحى : اتخذ جانباً .

وابراهيمُ يَمشى وانياً [1] ويُفكِّرُ بأسى فى أمرِ الرُّؤْيا : كَيفَ يُخبرُ ولدهُ الحبيبَ بأمرِ الذَّبحَ ؟

فلمـا بلغَ مـعـه السَّـعىَّ قـالَ لهُ : يا بُنىَّ إنى أرى فى المنامِ أنى أذْبحكَ، فانْظرُ ماذا تَرى ؟

كان إسماعيلُ ولداً صَالحاً باراً بوالديه ، مُطيعاً لهما تَربَّى على حُبِّ الله ، وحُبِّ والديه ، فَلا يرفضُ لهما طَلباً ، ولا يعَصى لهما أمْراً . وهَذا الذبح أمرٌ مَن الله لأبيه .

قال الغُلام طائعاً : « يا أبت افعل ما تُؤْمَر ستَجدنى إن شاء اللهُ من الصَّابرين» يا أبتَ اذْبحنى ولكنَ بَعيداً . . حتى لا تَفجعَ فىَّ أمِّى التى لا تقوَّ على فراقى، وحتى لا تفجَعَ فىَّ أصدقائى ورفاقى صبيانَ العَرب ، وحتى لَا تفجعَ نَفْسكَ فىَّ .

ويُغالبُ ابراهيمُ دَمْعَهُ وهو يَسمعُ ولدُه الوَحيدَ يتكلَّمُ بلسانٍ فصيحٍ، قلَب جريحٍ .

وتابع الابنُ كلامَهُ : يا أبت ! سآخذ معى السِّكينَ والحَبْلَ وسأسبقُكَ إلى وادى منى ، وهُناكَ عند سَفحِ الوادى يُمكنكَ أن تَذْبحنى ، امتثالاً لأمرِ اللهَ .

واسماعيلُ فى طَريقه إلى منَىً ، يلحقُ به الشَّيطانُ اللَّعينُ ، ويُوسوسُ له قائلاً : « يا اسماعيلُ لَا تُصغى لهذا الشَّيخ الخَرف . . لا تَنْسَ نَفْسكَ ، ولا تُضيِّعْ شبابكَ وحياتَكَ هَدَراً . . ولا تترك أمُكَ التى

---

(١) وانياً : بطيئاً .

ستهلكُ كَمداً لفراقكَ ، وسَيَفْجعها مَوْتُكَ . .

واسماعيلُ يَمْشى فى طَريقه لا يَسْمعُ للشَّيطان قَوْلاً ، ولا يُلقى له بَالاً ، إذ أنهُ كانَ فتىً مُؤمناً ، صادق الوَعد صَبُوراً . فلم يُزَعزعُهُ نُصْحُ الشَّيطان ، فأخَذَ جَمْرات من الأرْضِ وَرَجَمهُ بها ، ثم سَارَ فى طريقَه إلى منَىَ .

ثم اعترضَ الشَّيطانُ طَريقَ الغُلام مرَّةً ثانيةً يُحاولُ جَاهداً صَدَّهُ عن سَبيله وما كانَ من الغُلامِ إلا أنَّهُ أخَذَ جَمْرات أخرى ورجَمَهُ بها ، ثمَّ تابعَ المَسيرَ .

وفى منىً يَلتقى ابراهيمُ بولده البارِّ لقاءً حَميماً حَاراً .

وهُناكَ عندَ الصَّخْرة اضْطَجعَ اسماعيلُ ، وأرادَ ابراهيمُ أن يَشُدَّ الوَثاق[1] حتى لا يتململَ ولدُه أثناءَ الذَّبح ـ كما يحدثُ للشِّياه الذَّبيحة ، أو الطُّيور الجريحة .

ولكن اسماعيلَ يقولُ : يا أبتِ افعلْ ما تُؤْمَر . . أنا راضٍ بقضاء الله ، مُستسلمٌ لكَ .

واستجمعَ ابراهيمُ قُوَّتَهُ الحائرةُ ، وعَزيمتُه المُنهارة ليذبَح ولَدُهُ الوَحيدُ وأمْسك السِّكينَ بيد مُرْتعشة ، وجَزَّ بالسِّكينِ رقبةَ ولده . . ولكنَّ السِّكينَ لا تقطعُ ولا تجزّ .

يا إلهى غُفرانكَ . . يا إلهى رَحْمتكَ أرجُو فلا تكلنى إلى نَفْسى طرفةَ عَيْنٍ . ويُعيدُ إبراهيمُ المُحاولَةَ ظَنّاً منه أن نَفْسَه المُنكسرة وقَلبهَ

---

(١) الوثاق : الحبل الذى يربط به .

المكلومُ هُما سبباً مباشراً لامتناع القَطْعِ واتْمامِ الذَّبحِ .

ولكن المحاولةَ الثانية تَفْشَلُ والسكينُ لا يَقْطَعُ . .

وَ قبَّلَ ابراهيمُ جَبينَ الغُلام ، فارتعشَ إسماعيلُ على أثر (١) دَمْعة كبيرة ساخنة تحدَّرت (٢) من عين أبيه ـ على رَغْمٍ منه !

ويحاولُ الشَّيخُ الرَّحيمُ بولده عمليةَ الذَّبح مرة ثالثةً ، ولكنَّ الأمرَ لا يتمُ ؛ هُنالكَ ضجَّتْ ملائكةُ الرَّحمنُ فى السَّماءِ بالدُّعاء : أن يرحمَ هذا الشَّيخ الكبيرَ ، وأن يَفْد ولدُه الصَّغير .

واستجابَ اللهُ الدعاءَ رحمةً منه بإبراهيمَ وإسماعيلَ ، وأنزلَ جبريلَ بالفداء ، بكَبْشٍ عظيمٍ من كِباشِ الجنة .

وقال جبريلُ :

« يا إبراهيمُ ربَّكَ يُقرؤكَ السَّلام ، ويُنْعِمُ عليكَ وعلى إسماعيل بالإكرامِ . . وهذا كبشُ الفداء . .

« يا إبراهيمُ قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا ، إنا كذلكَ نَجزى المُحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم . . » .

وهَلَّلَ إبراهيمُ ، وكَبرَّ إسماعيلُ ، وفَرِحَ لفرحِهما الكَوْنُ ، وأصْبحَ هذا اليومُ لنا عيداً . . هو عِيدُ الأضْحَى .

---

(١) أثر : من تأثير . (٢) تحدرت : سقطت .

يُوسُفُ ـ عليه السَّلام ـ (ومحنةُ السِّجنِ)

سكنَ اللَيلُ ، وخَشَعت الأصواتُ ، ونَامَ الغُلامُ فى حُضْنِ أبيه قَريرَ العَين ، وفى الصَّباحِ نادَى عَلى أبيه بلْهفة :

ـ ياأبَت . . . يا أبَت !!

وارتاعَ الشَّيخُ وصَاحَ : مالَكَ يا يُوسفُ . . ما الأمرُ ؟!

قالَ الغُلامُ : إنى رأيتُ يا أبت فى المَنام رؤيا عَجيبة .

قالَ الشَّيخُ وهو يَّربتُ على كَتف الغُلام ويَضمه إلى صَدْره فى حَنان : خَيْراً إنْ شَاء اللهَ ، أخبرنى يا بُنىَّ ماذا رأيتَ .

قَالَ الغُلامُ : إنى رأيتُ أحَدَ عَشَرَ كَوْكباً والشَّمسَ والقَمر رأيتهمُ لي سَاجدينَ .

سكَتَ الشَّيخُ لحظةً وراحَ يُفكر ، إنهُ يَعْرفُ تأويلَ الأحلام ، ثُمَّ تَهلَّلَ وَجْههُ بْشراً وقالَ لولده : يا بُنَّى لا تَقْصُصْ رُؤيتكَ هذه على إخْوتكَ ، فيكيدوا لكَ كَيْداً ، إن الشَّيطانَ للإنْسان عَدُوٌّ مُبينٌ . . يا بُنىَّ إنَ الأحَدَ عَشَرَ كَوْكباً هُمْ اخوتَك ، والشَّمسُ والقَمَر هُما أمَّكَ وأبَاكَ ، وإنَ اللهَ سَيرفعُ قَدرْكَ ، ويُعْلى فى النَّاس شَأنَكَ .

كَانَ يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبُ طفْلاً جَميلاً وغُلاماً ذَكياً ، وهَبَه اللهُ حسْنَ الطَّلعَة وجَمالَ الرُّوحِ ، وكانَ يُوسُفُ أثيرٌ عند أبيه قريبٌ إلى

قَلبه ، وكانَ الشَّيخُ يُحبُ يُوسُفَ وأخَاهُ حُبًّا مَلَكَ عليه حَوَاسَهُ ، ولَمْ يَستَطِيع أن يُوارى مَشَاعرهُ .

وأحسَّ أخَوَةُ يُوسُفَ بهذا الحب ، فغاروا منهُ ، وقالوا لبعضهم إنَّ يُوسُفَ وأخَاهُ أحَبُّ إلى أبِينَا مِنَّا ونَحنُ عُصبَةٌ إن أبَانَا لفى ضَلال مُبين .

ما رَأيكم فى أن نَقْتلَ يُوسُفَ ، أو نَطْرحَهُ أرْضاً بعيدةً ، فيخلُوا لنا من بَعْده وَجْهُ أبينَا ، ويعود إلى حُبِّنا ورعايتنا .

وتَملَلُ الأخُ الأكبرُ وتحركَتْ فيه نَزْعَةُ الرحمَّة وقالَ : لا تَقْتلُوا يُوسُفَ ، ولكنْ ألقُوه فى قَعر بئر ، فتأخُذهُ بَعْضُ القَبائلِ السَّيارة مَعهُم فى رحْلتهم ، ويَعيشُ بعيداً عَنا .

وأعجَبَهُم هَذا الرأىُ ، فأقروه ، .

ذَهَبَ المتآمرونَ إلى أبيهمُ الشَّيخُ وهو جَالسٌ فى خُلوته يُسبِّح اللهَ وقالُوا له بتودُّد : يا أبَانَا مالَكَ لا تَأمَّنا علَى أخينَا يُوسُف وإنا لهُ لناصحونَ . أرْسلهُ معنا غَداً يرتعُ فى الخلاء ويلعَبُ وإنَّا له لحافظُونَ .

نَظَرَ الشَّيخُ إليهمُ مَلِّياً ثُمَّ قَالَ : يا أبنائى إننى أخْشَى عليه قَسْوةَ الصَّحراء ، وأخَافُ أن يأكُلُهُ الذِّئبُ وأنتُمُ عَنه غَافلُونَ .

فقالُوا : يا أبَانَا لاَ تَخَفْ ، إنَّ يُوسُفَ أحَبُّ إلينَا من أنْفُسنا كَيفَ لا نُحافظُ عليه وهو أخُونا ، والله لَئن أكَلَهُ الذِّئبُ ونحنُ عُصْبةٌ إنَّا إذْنَ لَخاسرُونَ .

ووافَقَ الشَّيخُ على أن يَذْهَبَ يُوسُف مع إخوته يلهُو ويَلعبُ .

وخَرجُوا إلى الصَّحراء ، وقَضَوا يَومَهم فى لَهو ولَعب ، واللهُ يَعْلمُ ما يُضْمرونُ فى أنفسهم ، وقَبْلَ أن تَميلَ الشَّمسُ إلى الغُروب ، اصطحبَ المُتآمرونَ أخَاهُمَ يُوسُفَ عند بئر عَميقة قَعْرُها ، وهُنَاكَ خَلعُوا عنه قَميصَهُ ووضعوهُ فى غَيابَة البئرِ وَهو يَصْرَخُ فيهم ويستغيثُ بهم :

ـ يا إخوتى لمن تَتركُونى فى هَذا الظَّلام وهذه الوَحْشة . . يا إخْوتَى لا تتركونى هُنا وَحْدى مع اللَّيل والبَرْد . . يا إخوتَى ماذا سَتقُولون لأمِّى ولأبى ، إن أبى سَيَفْجعهُ فِراقى ، أَسْتحلفكُم بالله ألاَّ تَتركُونى هُنَا وَحْدى .

ويبكى يُوسُفُ ، ويُردِّدُ الكَوْنُ الكَوْنُ بُكاءَهُ ، ولا يَسْمعُ فى الأرْجَاء إلا الصَّدَى .

وتَركَوُّه وانْصرفُوا وهُمْ يُفكرون فى كَلام يَدخُلونَ به على أبيهم ، وأنْزلَ اللهُ على قَلْب الغُلام أمْناً وسَلاَماً ، وأَنسَ وحَشْتَهُ .

وجاءَ اخوةُ يُوسفَ أباءَهُم عشَاءً يبكُونَ ، ونظَرَ الشَّيخُ إليهم ولم يجد يُوسف معهم ، فارتَاعَ وفَزَعَ وغَاصَ قَلْبهُ وسألهم :

ما بكمُ . . وأينْ أخُوكُم ؟

قالوا : يا أبَانَا إنَّا ذَهَبنا نَتَسابَقُ وتركْنَا يوسُفَ عند متَاعنا وطَعامنا فجاءَ الذِّئبُ وانْقَضَّ عليه وأكَلَه .

يا أبانا سامحنا واغْفر لنا تَفْريطنا فى حَقِّ أخينَا ، يا أبانَا ها هُو الدَّليلُ على صِدْقِ كَلامنَا ، قميصُ يُوسُف الذى مَزَّقَه الذئبُ اللئيمُ

ولَطخهُ بالدِّماء .

نَظَر الشَّيخُ إلى أولاده بعين الحَسْرة ، فرأى فى عُيونهم مَلامَح المكْر ، وشَمَّ فى كَلامهم رائحةَ الغَدْر ، ثُمَّ نَظَرَ إلى قَميص يُوسُف الذى لم يتَمَزَّقْ وإلى الدَّم المُراق على القَميص وقالَ فى لَوْعة طَاغية :

لقد سَوَّلتْ لكم أنْفُسُكم أمْراً فصبرٌ جَميلٌ ، والله المُستعانُ على ما تَصفونَ .

وطَأطأ رَأسَهَ ، وغطَّى وَجْهُه بيديه يُكفكفُ دُموعَهُ ، ويَطْلُبُ من الله الصَّبرَ الجَميلَ .

ومَرَّتْ بالبئر قَافلةٌ من قَوافل التِّجَارة ، وحَطَّتْ رَحْلهَا فى المكَان لتستريحَ من طُولُ السَّفر وعناء الطَّريق ، وأرْسَلوا واردهُم بالدَّلو إلى البْئر ليأتى بالماء ليْشربُوا .

وأدلى الرَّجلُ الدَّلوَ فتعلَّقَ به يُوسُف ، فهلَّلَ الرَّجلُ لَمَّا رآهُ وصَاحَ :

يا بُشْرىَ . . هذا غُلامٌ .

رَجَعَ السَّاقى بالغلام إلى القَوم دُونَ الماء ، فلمَّا رآهُ القَومُ تَعجَّبوا ، ونَظَرَ بعضُهم إلى بَعْض وقالوا : ما عَهدَنا الآبَارَ تَهدىْ إلى النَّاس غلمْاناً حساناً . . إنها لابُدَ جريمةُ إخفاء هذا الغُلام الجميل عن أهْلَه .

وتَشَاوروا فى الأمْر ، وأخيراً أثَروا ابقاءَهُ معهم والتَّخلص منهُ ببيعه بأىِّ ثَمن ، إذْ لا وَقْتَ عندهُم للتحقيق وكَشْف الجريمة ثم إرسَاله بَعَد ذَلكَ إلى أهْله .

وسارتْ القافلةُ حتى وَصَلتْ إلى مصرَ ، وباعُوهُ لوزيرَ مصرَ بثمن بَخْسٍ ، دَرَاهمَ مَعْدودة وكانوا فيه من الزَّاهدينَ .

ودخلَ وزيرُ مصرَ ورئيسُ حكُومتها على زَوْجته الحَسْناءَ حَاملاً إليها أغلى هَديةَ ، وما إن رأتْ الزَّوجةُ الغُلامَ حتى تَغيَّر وجهها وتَبَّدلتْ مشاعرُهَا ، وفطنتْ إلى أن زَوْجَها يَشْتَاقُ إلى ولَد ، وهَمَّتْ أن تقولَ شَيْئاً ، ولكنَّ زَوْجَها سَبَقها قَائلاً : يا عزيزتى ، هذا غُلامٌ جَميلٌ أكْرمى مَثْواهُ عسى أن يَنْفَعَنا أو نَتَّخذهُ ولداً ، يُؤْنسُ وَحْشتَنَا ويَملأُ بيتَنا نُوراً وبَهْجةً .

وعاشَ يُوسُف فى قَصْر الوَزير فى تَرف وراحة ، ويَلْقَى من أهَل البَيْت كُلَّ رعاية وحُب ، وتولَّى اللهُ رعايتَهُ فَنما جسمُه ونَضُج فكْرهُ ، وجرىَ ماءُ الشَّباب فيهَ فإزدادَ نَضارةً وحُسناً وأتمَّ اللهُ عليه النِّعمَةَ بأن حَفظَهُ من نَزَوات النَّفس ووساوس الشَّيطان فبدا الفتى مُتزناً مُحْتشماً وَقُوراً

فى هذا الوَقْت كانتْ زَوْجةُ الوَزير تُراقبُ الفَتَى أيْنمَا ذَهَبَ وحَيْثُما جَاءَ ، وتُتابعهُ بنظرات مُشْتَاقة ، وتَسْتلفتُ نَظره بزينتها وفتنتها ، ولكنَّ الفتَى كان مَشْغُولاً عنها بذكر الله ، وزادَ هُيَامُها به وحبُّها لهُ .

وذاتَ يُوم استبدَّ بها الحنينُ واستعر بها الشَّوقُ ، وغَلَّقتْ أبوابَ القَصْر بَعد أنْ تَزَّينتْ فَبَدتْ فى أحسن زينة واقتربتْ منه يَفُوحُ منها عطرٌ أخَّاذٌ وهى تَقُولُ بصوت نسائىٌ كأنَّهُ السِّحرُ : هَيْتَ لَكَ .

ويَنْتَشِى يُوسفُ بهذا العطر ، وبهذا النَغَم ، وتتحركُ مشاعرهُ

نَحْوها ، وفجأةً يبتعُد عنها وهو يَصيحُ : مَعاذَ الله . . . مَعَاذَ الله ، إن ربى أحْسَنَ مَثْواى ، كَيفَ أخُونُ من أحْسنَ مَثْواى ، ويتذكَّرُ يُوسُف إنقاذَ اللهُ له من ظُلْمَة البئْر ، وإحسانَ الوزير إليه . .

وركبَ الشَّيطانُ رأسَ المرأة ، إن الفَتَى يُهينُ كَرامتها وأنُوثَتها ، والرَّغبةُ تكادُ تَعْصفُ بها ، وهَى الآن فى أبْهى زينة . . عطْرٌ جميلٌ ، وثيابٌ فاخرةٌ تشَفُّ عن جسْمٍ بَضٍّ ، وفراش نَاعم وثير ، وهدوء يُدغدغُ المَشاعرَ . وَتَقْتربُ مَن يُوسُف برقةَ وإغراء وتميلُ عليه وبسُرعةً يَفرُّ من بين يدَيها ، فتلاحقهُ المرأةُ بجَنُونَ فَيجرَى الفتَى فى رُدهاتَ القصر مُرْتبكاً ، يخشَى اللَهَ ويخشَى الفضيحةَ ، ويفتحُ الأبوابَ ، وهى تَعْدو خلفهُ تحاولُ الإمساكَ به ، كانتْ أبوابُ القَصْر كلها مُغْلقةً ، والإماءُ والخَدمُ ـ على غير العادةِ ـ خارجَ القصر ، أو فى ديارهم .

ولحقت به المرأةُ عند أحَد الأبواب وهُو يُحاولُ فَتْحهُ ، كانتْ الأنفاسُ مَبْهورةً ، وعندما انتزَع يُوسفَ نَفْسهُ منها جَذبتُه من قَميصه ، فانشقَّ ، حتى إذا وصَلاَ إلى باب القَصْر الخارجىِّ ، وكَادَ أن يَنجَو الفَتَى منها ، وهُنا وصَلَ الوَزيرُ ، وَعَقدتَ الدَّهْشَةُ لسانَ يُوسفَ فَلمْ يَسْتطيع أن يَنْطقَ بكلمة ، وأطْرقَ برأسه خجلاً ، وَفى هذه اللحظة تبّدلَ حالُ المرأة ـ زَوجةُ الوَزيرِ ـ وصاحَتَ فى استنكارٍ مُصْطَنعٍ تُبْعدُ التُّهمةَ عن نَفْسهَا :

ـ ما جَزَاءُ من أرَادَ بأهلكَ سُوءاً إلا أن يُسْجَن أو عذابٌ أليمٌ .

ودُهشَ يُوسفُ ولم يَجْد ما يَدْفعُ به عن نَفْسه تُهمةَ الخيانة ، وقَالَ

— فى تواضُعٍ ووَجَلٍ : هى راودتنى عن نَفْسى ، فهربتُ منها ، فأدْركتنى فَقَدَتْ قَميصى .

وهُنا دَخَلَ ابن عَمٍّ هذه المرأة ورأى المَشهد ، فقالَ :

إن كانَ قميصُ الفَتى قُطعَ من أمَامٍ فتكونُ هى صَادقَةً وهُو من الكاذبينَ ، أما إن كان قميصُهُ قُطعَ منَ الخلفِ فتكونُ هى كاذبةً فى إدعائها وهو من الصَّادقينَ .

ونَظَرَ الوَزيرُ إلى قميص يُوسفُ فرآهُ قدَّ من دُبُر ، فَفطنَ إلى الحقيقة وأوْمَأ برأسه وقالَ : إنهَ من كَيدكنَّ . . إن كَيدكنَّ عظيمٌ .

ورأى الوزيرُ أنَ يُعالجَ المَوقفَ بحكمة وبُسرعة قَبْل أن يَتسرب الخبرُ وتشيعُ هذه الفَضيحةُ بين النَّاس .

فالتفَتَ إلى يُوسفَ وقالَ : يُوسفُ . . أعْرضْ عن هَذا الأمرَ . . ولا تَذْكرُ ما كان منهُ لأحد .

ثم الْتفتَ إلى زوجتهِ وقال : أما أنتِ فاستغفرى لذنبك إنك كُنْتِ من الخاطئينَ .

وتَسَّربَ الخبرُ فى الأوْساط المُحيطة ، وأصبحَ حَديثَ النِّساء فى المجَالس ، وقال بسْخرةٌ فى المَدينة : اَمرأة العَزيزُ تُراودُ فتاهاَ عن نَفْسه ، لاَبدٌّ أنه قد شَغَفها حُبَّاً ، إنا لنَراها فى ضلال مُبين !!

فَلما سَمعتْ زوجةُ الوزير بمكرهنَّ وهَمسْهنَّ ثَارتْ وغَضبتْ ، وأحَسَّتْ طَعْناً فى أنُوثتها وسَطْوتها ، وأرادتْ أن تَدْفع عن نَفْسها التأنيبَ واللَّومَ ، فَدَّبرتْ لَهنَّ أمْراً ، وأعَدَّتْ لهنَّ مُتكَّئاً فى قَصْرهَا ،

ودَعَتْهنَّ إلى وليمة كبيرة .

وجَلَستْ النِّسوةُ على النَّمارق الوَثيرة ، واتكأت كُلُّ واحدة فى جلْسة مُريحة بعد الطَّعام ، ووضُعَتْ أمامهنَ أطباقَ الفَاكهة ، وأعْطَتْ زَوْجةُ الوَزيرَ كل واحدةَ منهنَّ سكِّيناً لتقشير الفاكهة ، ودار بينهنَّ الحديثُ ، وتعالتْ الضَحكاتُ وَسْطَ أوتار المعَازفَ ، وهُنا أدْخلَتْ زوجةُ الوزيرف عليهنَّ يُوسُفَ من حَيْثُ لا تَشْعُرن .

وعقدتْ ألسنتهن المُفاجأةُ ، وسكتتْ الأصواتُ ، وفَغرتْ أفواههنَّ الدَّهشةُ . . شابٌ مُكْتملُ الرُّجولة . . جَمالٌ آسرٌ وأدَبٌ جَمٌّ ، واحتشامٌ وجَلالٌ . .

صاحتْ واحدةٌ : ما هذا بَشَراً . .

وقالتْ أخرى : إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ .

وقالتْ ثالثةٌ : نعم . . إنْ هذا إلا مَلك كريمٌ .

وانصرفَ يُوسُف ، وأطلقتْ زَوْجةُ الوزير ضحكةً مُجلجلةً . . كانتْ تنظر إليهن بفخرٍ ومكْرٍ ، وتَشْعُر بِنَشْوةِ الإنتصارِ عليهنَّ وتقُولُ فى شَماتة :

انظُرن إلى ايْديكنَّ . . لَقَد أخَذتكَّن الدهَشةُ لمجرد نظرة واحدة ألقيتموها على الفَتَى ، وجَرحتَن أيْديكُنَّ بدلاً من تَقْشيرِ الفَاكهَة . .

هذا هُو الفَتَى الذى لُمتنَّنى فى حبِّى له ، ولقد رَاودتُّهُ عن نَفْسه

فاستعصَمَ وأبى ، وتمسَّكَ بالفضيلة والعفَّة ولئن لَمْ يَفعلْ ما آمُرهُ ليُسجنَنَّ وليكونَنَّ من الصَّاغرينَ .

فَطَن يُوسف إلى ما يَدورُ فى خَلَد إمرأةُ العَزيز ، وأدْركَ من نَظَراتها ومن اجْتماعها مع صُويحباتها أن الأمرَ جَدُّ خطيرٌ ، وأنَّهُ إن لَمْ يستعن بالله عليهنَّ ذَلَّ وَغوىَ ، فالنِّساءُ أشَدُّ فتْنةً ، وفى تآمرهُنَّ أعْظَمُ مُصيبة ، هُنالكَ رَفَع يديه إلى ربه سائلاً :

« ربِّ السِّجنُ أحبُّ إلىَّ مما يدعوننى إليه ، وإلاَّ تصرفْ عنى كَيدهُن أصَبُ إليهنَّ وأكَنُ من الجَاهلينَ » .

وأحْدثَ هذا الإجتماعُ الذى أقَامتهُ إمرأةُ العَزيز انقلاباً فى عُقُول النِّسوة وأصبح هذا الفَتَى الجميلُ حَديثَ المدينة . ورأى الوزيرُ ومُشيروهُ أن يُوقفَ هذا التَّيار الجارف ، وأن تَخْمد هذه الفتنةُ الصَّاعدةُ بأن يُبعدَ يُوسفَ عن أعْين الهائمات ربَّات القُصور ، ، وذلكَ بأن يَحتجزهُ فى السِّجن بضْعَ سنينَ .

ودَخلَ يوسُفُ السِّجن كما تَمنىَّ ، وآثرهُ على الوقُوع فى شَرَك الغواية ، وكان السِّجنُ ليوسُفَ صَوْمعةً يعبدُ الله فيها ، ويدعوُ إلى الله ، وعَلَّمهُ اللهُ تفسيرَ الأحلام ، وحَبَاهُ بالمعرفة والحكمة .

ودخلَ معه السِّجنَ فتيان ، ودارَ بينهم الحديثُ حتى جاءَ المساء وختَّمَ الظَّلامُ فنامُوا .

ورأى صاحبا يُوسفُ رُؤيا فى المَنام ، فجلسا إلى يُوسُفَ فى الصَّباحِ كُلٌّ منهما يَقُصُّ عليه ما رآهُ فى النَّومِ .

فقالَ الأولُ : إنى أرانى أصْنعُ نبيذاً وأعْصُرُ خَمْراً .

وقالَ الثَّانى : وإنى أرانى أحْملُ فوق رأسى خُبْزاً تأكُل الطَّيرُ منه يا أخانا يُوسُف نبئنا بتأويل هذه الرُّوَى ، لَعلَّ اللهَ يجعلُ لنا من الضِّيقِ مَخْرجاً ، إنَّا نراكَ من الصالحينَ .

ووجدها يُوسُفُ فُرصةً للدَّعوة إلى الإيمان بالله والتعريف بنفسه فقالَ لهما : لا يأتيكُما طَعامٌ تُرزقانهِ إلا نبأتكُماَ قَبلَ أن يَصِلَ إليكُما .

فقالا : هذا فعْلُ الكَهنة والسَّحرة .

فقالَ : ما أنا بكاهن ولا بساحر ، ولكن ذَلكَ مما عَلَّمنى رَبىٌّ فقد تركتُ دينَ قومٍ لا يُؤمنونَ بالله واليَومِ الآخر ، واتبعتُ دين آبائى إبراهيمَ واسحقَ ويَعْقوبَ ، فكلنا نعبد اللهَ وحدهُ لا نُشْركَ به أحَداً ، وذلكَ كله من فَضْلِ اللهِ علينا وعلى الناس ولكنَّ أكثَر النَّاسِ لا يَشْكرُون الله .

اعتدلَ يُوسُف فى جلْسته ، ثُمَّ قالَ يا صَاحبى السِّجن أأرباَبٌ مُتفرقونَ نعبدهُم خَيْرٌ أمَ اللهُ الواحدُ القَهار ، ما تعبدونَ من دُونه إلا أسْماءً سَميتموها أنْتُم وآباؤُكم ما أنزل اللهُ بَها من سُلطانٍ ، إن الحُكْم

إلا لله ، أمَرَ ألا تَعْبدُوا إلا إياهُ ، وذلك الدِّينُ القيمُ ولكنَّ أكثَر النَّاسِ لا يَعْلَمونَ .

وبعد أن فرغ يُوسفُ من دَعْوة صَاحبيه فى السِّجنِ إلى دِين الله ، أخَذَ يُفسِّرُ لهما الرُّؤَى .

فقالَ : يا صاحبى السِّجن أما أحدكُما فيسقى سَيِّدَهُ خَمْراً بعد أنهُ يُحْكَم له بالبراءةَ ، وأما الآخرُ فَسيصلُبُ ، وسَتُركُ فى العراء حتى يموت ، وسَتأكُلُ الطيورُ الجارحةُ من رَأسِه قُضِى الأمرُ الذى فيه تستفتيان .

وفكَّر يوسف ، ووجَدها فُرصةً للخلاص من هذا السِّجن ومن ذاكَ العذَاب ، فقالَ للفتى الذى ظَنَّ أنهُ سَيُحكَم له فى قضيته بالبراءة وهو السَّاقى :

يا صاحبى ، اذْكُرنى عند سَيدكَ ، وأخبره بمظلمتى وأننى حَبيسٌ هنا بغير جَريمة وبغير ذَنْب ، ودُونَ محاكمة عادلة وخرجَ الفتى (السَّاقى) من السِّجنَ ، ونسَى أن يُخبر سَيِّدهَ الملكَ بأمرِ صَديقه . وشَغَلَهُ عملُه عن وَصية يُوسفَ .

يوسف ـ عليه السلام ـ (الوزير الحكيم)

دَارتْ الأيامُ ، ومَـرَّ عَـامٌ إثْرَ عَـام ويوسُفُ فى سـجْنه صَابرٌ مُحْتسبٌ، يَجْتَرُّ آلامَ الغُرْبَة ، ويُسَرِّى عَن نَفْسه بالتأمُّلَ فى الكَوْن ، وفى الحَياة ، ويَستغفرُ اللهَ عن ذَنْبه وَسهْوَه ، ويُسَبحُ الله بُكَرةً وعَشيًا .

وذاتَ لَيْلة رأى المَلكُ رُؤيا عَجيبة هَالَتهُ وأفْزَعتُه ، فبينما هو جَالسٌ على شَاطئ النَهْر يتأمَّلُ المياهَ الصَّافية الرَّقراقة ، إذْ به يَرى سَبْعَ بقرات سمَان تَخْرجُ منَ الماء مُتجهةً نحو الشَّاطئ ، وبعدها خَرجتْ من المياه سَبْعَ بقرات ضعَاف عجاف هَزيلة ، والتهمتْ بشراهة البقراتَ السِّمانَ .

استيقظَ الملكُ من نومه فَزعاً مَذْهوشاً ، ثُمَّ عادَ إلى رُقاده بعد أن هَدأتْ نَفسُه .

وعندما أخذتُه سنَةٌ من النَّوم رأى نَفْسَه يجلسُ على الشَّاطئ يتأملُ الحقُولَ والأشجارَ ، وفجأةً كانتْ سنابلُ القَمح تتمايلُ مع نسمات الرِّيح ، وإذا بَسبع سُنْبلات يَابسات تَتحركُ من حَقْلها مُتجهةً نحوَ الحَقلَ المُجاور وتلتهمُ سَبْعَ سُنبلاتْ خُضْر غَضَّة جَميلة .

واستيقظَ المَلكُ مَفزُوعاً ، وراحَ يتلَفتُ حَولَهُ فى هَلَعٍ . . وصاحَ

منادياً على الخَادم بأن يُسْرِعَ بإستدعاء رجَاله وأهْل مَشُورته ، وعندما أتَوا مُسْرعينَ سَألَهمُ عن تفسير هذه الرُّؤيا العَجيبة .

فحاروا فى تفسيرها ولم يجدوا ما يَقُولونه سوى أنها أضغاث أحْلام ورُؤىً ، وهمُ لا يعرفونَ تَفسيرَ الأحلام .

وهُنا تَنَبَّه السَّاقى ـ ساقى المَلك الذى لَبثَ فى السِّجن مُدةً مع يُوسفَ قبل أن يُحكَم له بالبراءة ـ إلىَ الرُّؤيا ، وتذكر ما كان من أمْر يُوسف فى تَفْسير الأحلام ، فقالَ للملك :

ـ أنا يا سَيِّدى سآتيكَ بتفسير هذه الرُّؤيا ، ولكن دَعُونى يَوْماً أو بَعضَ يَوم .

وخَرجَ السَّاقى من القَصْر مُسْرعاً ، وطَلَبَ زيارةَ يُوسفُ فى السجْن ، وعندما التقاهُ سألهُ : يُوسفُ أيها الصِّديقُ . . أفتْنا فى سَبْع بقرات سمان يأكلهن سَبْع عجافٌ ، وسَبع سُنْبلات خُضْر تأكُلها سَبْعُ سُنبلاتَ يابسَات ، إنها رؤيةٌ رآها المَلك ليلَةَ أمس .

قالَ يُوسُفُ بَعد تفكيْر وصَمْت : يا صَاحبى . . رُؤْيا ملكُكم هذه تَفْسيرها أن تخصب الأرضُ سبعَ سنينَ وتجودَ بزرعها ، ثُمَّ تقحطَ سبعَ سنينَ .

ثُمَّ يأتى بعد ذلك عامٌ خَصيبٌ تجودُ فيه الأرضُ بالخير ويكْثُرُ فيه الزَرعُ والثَّمرُ ، فعليكم أن تزرعُوا سَبْعَ سنينَ مُتواصلة فما حَصَدتْمُ من القَمح فاتركوهُ فى سُنْبله إلا ما تحتاجُونَ إليه لتأكلُوهُ ، فإذا جَاءتْ سَنواتُ القَحطِ السَّبعة أكلتُم من القمح الذى ادَّخرتموهُ فى سنوات

الرَّخاء .

ثم يَعْقُبُ هذا عامٌ فيه رخاءٌ ونماءٌ ، تكثُر السَّنابلُ وتكثُر الثِّمارُ ، ويأكلُ الناسُ ويتمتعونَ ، ويَعْصرونَ النبيذَ .

وشكَرَ السَّاقى يُوسُف وطارَ إلى الملك يُخبرهُ بتأويلِ هذه الرُّؤيا العَجيبة التى سَمعَها من رفيقه فى السِّجن .

تَهلَّلَ وجهُ المَلك بشْراً وقالَ لأعوانه :

ـ ائتونى بهذا الفتى السَّجين .

فجاء السَّاقى إلى يُوسُف فى السِّجن يخبُره : بأن المَلكَ يدعوه للقائه ويُريدُهُ ، فقد أعْجبَ بذكائه وعلْمه .

وأخَذ يُوسُف يُفكر ، ووجَدَ فى هذه الدَّعوة ضَالتهُ فى إثْبات براءَته أمامَ النَّاسِ . . ولكنْ أيخرجُ من سِجْنه ذَليلاً مُنْكَسراً ؟ . . كلاَّ .

لم يَقْبَلَ يُوسُف الذِّهَابَ إلى المَلك إلا وهُو مرفوعُ الرأس مَوفُور الكَرامة نقىُّ الضَّمير . . ولكى يَعلمَ المَلكُ وأعوانُهُ أنه حُبِسَ ظُلْماً . فقال للسَّاقى :

ارجعْ يا صديقى إلى الملك واسْألْه عن النِّسوة اللاتى قَطَّعنَ أيْديهُنَّ ، وعن حقيقة ما حدثَ مَنى .

فأرسلَ الملكُ إلى النِّسوة وسألهنَّ عن يُوسفَ ، فقُلنَ : حاشا لله ، ما عَلمنا عليه من سُوءٍ ، وإنه لَرجلٌ كريمٌ نَبيلٌ ، لم يَحْدثْ منه شىءٌ مَعيبٌ .

ولما رأتْ زَوْجَةُ الوزيرُ أن الحقَّ قد ظَهَر قالتْ : الآنَ بانَ الحقُّ ، أنا التي راودتُ الفَتى عن نَفْسه ، لكنه اسْتَعصَم بالله ، وامْتنعَ عن فعْلِ السُّوء ، إنه حقاً بريءٌ مما نُسبَ إليه ، وإنه حُبسَ ظُلْماً . .

وما أبرئُ نفسي بهذا القَول ، إن النَّفسَ لأمارةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِمَ ربي .

فلما عَلم الملك بالحقيقة إزدادَ إعْجاباً بهذا الشَّاب الذكَّي الأمين وأشَارَ إلى الحَرس : ائتُوني بهذا الشَّاب استخلصُه لنفسي ، إنني في حَاجة إليه ، لعفته وحكْمته وصَبْره .

خَرجَ يُوسُفُ من سجْنه عَزيزاً كَريماً ، وكانَ مَلكُ مصرَ في شَوْق للقائه ، وعنْدما جَلَس إليه وَكَلَّمهُ ، قَالَ لَه يُوسُفُ بَعْدَ حوار :

ـ أيُّهَا المَلكُ الكَريمُ . . . إن البلادَ مُقْبلةٌ على سَنَوات رَخَاء ثُمَّ جَدْب والأمْرُ يَحْتاجُ إلى حكْمة وتدبير في إدارة هَذه الأزْمَة ، فاجْعَلنَي على خزَائن الأرْض إنِّي حَفيظٌ عَليمٌ .

قالَ الملكُ وهو مُطْمئنٌ إلى بَراعة يُوسُفَ وسيَاسته : لَكَ ذَلكَ .

وهكَذا أصبْحَ يُوسُفُ بعد سَنَوات الاغْتَراب والعَذاب والضَّنى خَازناً للبلاد ووزيراً للإقْتصاد ، وجَادَتْ السَّماءُ وفاضَ النِّيلُ وعَمَّ البلادُ الخَيْرَ ، وأمَرَ يُوسُف النَّاسَ أن يَدْفَعوا لمخَازن الدَّولة ما يَفيضُ عَن حَاجَتهم ، ويَتْركُون القَمحْ في سَنابله عَاماً بَعدَ عَام . . سَبْعَةُ أعْوام مُبَارَكة من تَرْشيد الاسْتهلاك حَتَى امْتلأتَ المخَازنُ بالرِّزق الوفيرِ . .

ثم أمْسكت السَّماءُ ، وشَحَّ النّيلُ وأجْدبت الأرضُ وانتشرَ القَحْطُ في ربوع البلَاد ، وفَتحتْ المخَازنُ أبوابَها ، وَوزُعتْ الأقواتُ على النَّاس بالعدْل .

وذَاعَ صيتُ يُوسفَ الوَزيرُ العَادلُ في الأمْصار ، وفي أرْض كَنْعانَ كانَ القَحْطُ شَديداً وسَمعَ النَّاسُ هُنَاكَ عن الخَيرِ الذي بمصرَ ، وعن وَزيرها الكَريمُ الذَّي لا يَرُدُّ من قَصَدهُ ولا يُخَيِّبُ رَجاءَ منْ رَجاهُ ، وخَرجَ بنو يَعْقُوب العَشْرةُ قَاصدينَ مصرَ ، لعلَّهُم يَرْجعونَ برزق وَفير وخَيْر كَثير ، ودَخَلُوا على يوسَف ، فَعرفهَمُ وهُمْ له مُنْكرونَ .

عَرفَ يُوسُفَ ـ الوَزيرُ العَادلُ ـ اخوتَهُ العَشْرة رَغْمَ كَرِّ السِّنينَ ومَرِّ الفُصُولَ وتَبَدُّل الأحْوَالَ . وكَيفَ لا يَعْرفُهُمُ وصُورتهُمُ ماثلةٌ في ذهْنه يَومَ ألقَوه في غيَابة الجُبِّ وهو يَستغيثُ بهم .

لَمْ يَخْطر ببالهم أنَّ هَذا الصَّغيرُ الذي تركُوهُ للضياع يُمكنُ أن يُصْبحُ يوماً ذا شَأن ، أو يَنْتقلُ من أرْضِ المَقْدس إلى أرْضِ مصرَ ، ويُصبحُ بفضل الله وَزيراً كَريماً .

وحَاورَهُمَ يُوسُفُ الوَزيرُ العَادلُ وسألَهُمْ عن مَوْطنهم وعنْ أمِّهمْ وأبيهم وعن أخْوتهم . فأجَابُوهُ وتَوسَّمُوا فيه خَيْراً وقَدَّمَ لهم يُوسُفُ عَطاءً سَخِّياً . ولما جَهَّزهُم بجَهَازهم قالَ لَهمُ : ائْتُونى بأخٍ لكُم من أبيكُمْ . . ألا تَرَونَ أنِّى أوفى الكَيْلَ وأنا خَيْرُ المُنْزلينَ ؟ . . فإن لَمْ تأتونى به فَلا كَيْلَ لكمُ عنْدى ولا تَقْربُونَ .

وقَالَ الوَزيرُ لفتيانه : اجْعَلُوا بضَاعَتهُم التى أتَوا بها فى رحَالهم لَعلَّهمُ يَعْرفُونها إذَا انْقَلَبُوا إلى أهْلهَم لَعلَّهمُ يَرجْعون .

فلما رَجَعَ الأخوةُ إلى أبيهم ، ورأوا أن بضاعتَهُم قد رُدَّتْ إليهم وأنَّ الوَزيرَ أعْطاهُم غَلَّةً بلا ثَمن ، أدْركُوا أنهَمَّ لن يستطيعُوا الرُّجوعَ إلى مصْرَ إلا إذا أخَذُوا أخَاهُم بنيامين مَعهُم لكى يراهُ الوَزيرَ العَادلَ .

وتَوجَّهُوا إلى أبيهم يَرْجُونَهُ أن يُرسلَ مَعهُم أخَاهُم «بنيامينَ» لأنَ وَزيرَ مصْرَ قد شَكَّ فيهم ، وأنَّهُ لَنْ يُصدَقَ دَعْواهمُ إلا بدليلٍ يُقدمونَهُ بَيْنَ يَدَيه . . هذا وإلاَّ الإنْذارُ بالحرمانَ .

فقالُوا لهُ باسْتعطاف : يا أبَانَا أرْسل مَعنا أخَانَا بنيامينَ فى رحلة التِّجارة إلى مصْرَ ، وإننَّا نَعدكَ بأن نَحْفظَ أخَانا هَذَه المرَّةَ ، وأن نَرُدَّهُ سَالماً إليكَ ، وَسَنَزدادُ بوجُودهَ معنا حِملَ بَعيرٍ ، وَهذاَ يَا أبَانَا خيرٌ لَيْسَ يَسيراً .

ووافَقَ الأبُ ـ رَغْمَ ارْتيابه وخَوْفه على إبنه ـ على أن يُرسلَ مَعَهُم أخَاهُم بنيامينَ ، وبَعْدَ أنْ أقْسَمُوا لَه بأن يَردُّوهُ إليه سَالماً ، إلا أنْ يُحَاطَ بهَم .

وأعَدَّ الأخوةُ العُدَةَ للرحيل إلى مصْرَ بصُحبَة أخيهم بنيامينَ ووَقَفَ الأبُ الرَّحيمُ يُودعُ أولادَهُ فى حَنان ظَاهر ويَنْصَحَهُمْ بقَلْب خَالص : يا بنَىَّ . . لا تَدْخُلوا من بَاب وَاحدَ وادْخلُوا من أبْوابَ مُتفرقَة ، وما أغْنى عَنْكُم من الله من شَىءَ فَتوكلُوا على الله .

وخَرجَت العيْر من فلَسطينَ قَاصدةً أرْضَ مصْرَ ، ولما دَخَلُوا على يُوسُفُ ورأى أخَاهُ بنيامينَ سَجدَ شاكراً لله ومَالَ على أخيه هَامساً : يا بنيامينُ ، أنَا أخُوكَ فلا تَبْتَئس ولا تَحْزَنَ بما كانُوا يَعْملونَ ، ولا تُكاشفْهمُ بحقيقَتى ، وسَأدبرُ أمراً من حَيثُ لا يَشْعُرونَ لتبقَى معى

هُنَا فى مصْرَ .

فلما جَهَّزهُم يُوسُفُ بجهَازهم ، وضاعَفَ لهمُ العَطَاءَ من قَمحٍ وشَعير قالَ لفتيانه : دُسُّوا كَأسَ المَلك فى رحلِ هَذا الفَتَى « بنيامين » ، ثُمَّ دَعُوهم يَرْحلونَ .

وخَرجَ أخوةُ يُوسفَ من المَدينة فَرحينَ بالعَطاء ، ومَعهُم أخُوهُم بنيامينَ ، وقَبْلَ أن يُغَادرُوا مصْرَ فى طَريقُهمُ إلَى الشَّام لَحقَ بهم المُنادى وهو يَصيحُ : أيَّتُهَا العيرُ . . قفُوا أيَّتُها العيرُ . . إنَّكُم سَارقُونَ!

ووَقعَ النَداءُ عليهم وَقعَ الصَّاعقة : سارقُونَ ؟!

قَالوُا فى فَزَعٍ : ماذَا تَفْقدُونَ ؟!

قالَ الحُراسُ : نَفْقدُ صُواعَ المَلك ، وهُناكَ مُكافأةٌ لمنْ يَعْثُر عليه أو يأتى به ـ حمْلُ بَعير منَ القَمْح أو الشَّعير .

نَظَرَ الأَخوةُ بَعْضُهم إلى بَعْض فى دَهْشة وقالوا : تالله لقد عَلمتمُ أننا ما جئْنَا لنُفسدَ فى الأرض وما كُنَّا سارقينَ .

نَظَرَ الحُرَّاسُ إليهم بريبة ثُمَّ قَالوا : وما جَزاؤهُ إنْ كُنْتُم كَاذبينَ فى إدعائكُم ، وثَبُتَ أنكُم حَقاً سَارقُونَ ؟!

قَالُوا : جَزاؤُهُ فى شَريعتنَا أنه من يُوجدُ فى رَحْله فهو جَزَاؤُه ، ويَتحَملُ وزرَ نَفْسه .

فبدأ الرَّجلُ بتَفْتيش أوعيتهم وَاحدةً تلْوَ الأخرَى ، وهُمْ يَنْظرُونَ ، وأخيراً استَخرجَها منَ وعَاء بنيامينَ ، وهُنا بُهتَ الأخوةُ جَميعاً ونَظَر بَعْضُهم إلى بَعْضٍ فى حَيرَةٍ وخَجل ، ونَظَر الرَّجلُ إليهم سَاخراً وهُو

يَحْملُ صُواعَ الملك .

فقالَ أحدُ الأخوة يدفَعُ عن نَفْسه تُهمةَ السَّرقة : إنْ يَسْرق فقد سَرَقَ أخٌ له من قَبْلُ .

وَقفَ أخوةُ يُوسفُ أمامَ الوَزيرَ العَادل فى خزْى وعَار وحَرَج ، وتذكَّرُوا العَهْدَ والميثاقَ الذى أخَذُوهُ علَىَ أنفُسهَم بأنْ يَرجعُواً إلى أبيهم بأخيهم بنيامينَ . ماذا سَيقُولونَ الآنَ لأبيهم وقد حَدثَ ما حَدثَ ؟! .

فقال أحدهُم للوزير فى استعطَاف : يا أيُّها الوزيرُ إن له أباً شَيْخًا كبيراً ، وإنهُ قَد يُصيبَهُ مكْروهٌ لفراقهَ ، نتوسَّلُ إليكَ أن تَأخُذ أحدَنا مكانَهُ وتتركَهُ ، إنَّا نَراكَ من الْمحْسنينَ .

أشَاحَ الوزيرُ عَنهُم وقالَ فى نَوْبة غَضَب : مَعَاذَ الله أنْ نأخُذَ إلا مَنْ وَجَدنا متَاعنَا عنْدهُ ، إنا إذاً لظَالمونَ .

وقعَ الأخوةُ فى مأزقٍ شَديدٍ وحَيْرةٍ وضيْقٍ ، ماذا يصنعونَ والوزيرُ يُصرُّ على رأيه ؟! .

ووقَفُوا بَعيداً يتنَاجَوْنَ فى أمْرهم ، قال كَبيرهُم فى حَسْرة وهو يَعَضُّ الأصابعَ من الغَيْظ : ألم تَعْلمَوا أنَّ أباكُمُ قد أخَذَ عَليكمُ مَوْثقاً من الله ، ومن قَبْلُ ما فَرَّطْتم فى يُوسُفَ ، فلن أبْرحَ هذه الأرضَ حتى يأذَنَ لى أبى فى العَودْة إلى الشَّامِ ، أو يَحكُمَ اللهُ لى ، وهو خَيرُ الحاكمينَ .

يا أخوتى ، ارجعُوا إلى أبيكمُ وقُولوا له يا أبَانَا إن ابنَكَ بنيامينَ

سَرقَ وحُكمَ عليه بالسِّجن فى مصرَ ، وما شَهدنَا إلا بما رَأينَاهُ بأعيُننا ، واسْألْ ـ إنَ كُنتَ لا تُصدقَنا ـ أهل القَرية التى كُنا فيها ، أو اسألْ أصحابَ العْير التى كُنا معهُم فى مصرَ ، وستَعلَمُ أننا صَادقُونَ .

ورَجَعَ اخْوةُ يُوسُفَ إلى أرْض الشَّام ، وانْقَلبُوا إلى أبيهم صَاغرينَ . ولَمَّا رأى الشَّيخُ أولادَهُ وَليسَ فيهمُ بنيامينَ ، ولا أخَاهمُ الأكبرُ ، سَاخَتْ أعصَابُه وانْهَمرتْ دُمُوعُه وراحَ يُردِّدُ فى أسىً كَظيم : بل سَوَّلتْ لكم أنفسكُم أمراً فصبرٌ جَميلٌ ، عَسى اللهُ أن يأتينى بهم جَميعاً ، إنهُ هُو العَليمُ الحكيمُ .

وتَولَّى الشَّيخُ عنهم وهُو يُردِّدُ بحسرة : يا أسَفَى على يُوسُفَ ! .

وزَادتُه الصَّدمةُ الثانيةُ ألماً على ألَمٍ ، وعَيناهُ لا تُفَارقهما الدُّموعُ حتى فَقَد بَصَرهُ .

ودَارتْ الأيامْ ، واسْتَبدَّ بالشَّيخِ الشَّوقُ لرُؤية ولَديه الجَميلين . . يوسف وبنيامين .

ـ فهو لم يَقْنط من رَحْمة الله ـ وقالَ لأولاده : يا بَنَّىَ لا تيأسَوا من رَوْح الله ، إنه لا ييأسُ من رَوْح الله إلا القَومُ الكافرونَ ، يا بنَّى إذهَبُوا فتَحسَّسُوا عن يوسفُ وأخيهَ فَقَد تَعثُروا عَليهما .

وجَهَّزَ الأبناءُ متاعَهمُ ، ودَخَلُوا مَصرَ بنفُوس كَسيرة يَحْدُوهُم الأملُ فى رَحْمة الله ، وفى إرضاء أبيهم .

ودَخلُوا على الوَزير العَادل وقَالُوا فى تَضرع : يا أيها الوَزيرُ مَسَّنَا وأهْلنا الضُّرُ وجِئْنَا ببضَاعة مُزْجَاة ، فَأوْف لنا الكَيْلَ وتَصَدَّقْ علينا إن

اللهَ يَجْزى المُتصدقينَ .

وأدْركَ يُوسُف حَجْم المكابدة التى بَلغَها إخوتُه ، كيفَ لا وهُمُ يَتوسَّلونَ ويتصاغَرونَ ويَلتمسونَ منهُ الإحْسَانَ والصَّدقةَ .

وبَدتْ على مُحيَّاهُ مَلامحَ السَّماحة والبَشَاشَة والشَّفَقة ، وقالَ لهم فى عتاب ووُدٍّ : هَلْ علمتمْ ما فعلتُم بيوسُفَ وأخيه إذ أنتُم جَاهلونَ ؟

ومَرَّتْ لحظةٌ صَمْت نظَر فيها الأخوة بعضُهم إلى بَعْضٍ ، ثُمَّ قَالُوا فى دَهْشَة ووَجل : أئنَّكَ لأنتَ يوسُفُ ؟! .

قالَ الوزيرُ ضاحكاً : نَعَم أنا يُوسُفُ ، وهَذا أخى بنيامينُ ، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلينا ، إنهُ من يَتَّق اللهَ ويَصْبر ، فإن الله لا يُضيعُ أجْرَ المحسنين .

راحَ الأخوةُ يعْتذرونَ عن فِعْلهم ويطلبونَ من يُوسفَ الصَّفحَ عنهُم .

قالَ يُوسفُ : اليَومَ يَغْفرُ اللهُ لكُمْ وهو أرْحمُ الرَّاحمينَ .

ثم أتَى بقميص كانَ لهُ وقالَ لهُم : اذْهَبوُا بقميصى هذا فألقُوه على وَجْه أبى يَعُودُ إليه بَصَرهُ ، وائتُونى بأهلكمُ أجْمعينَ .

وبينما العيرُ فى طريقها إلى الشَّام ، إذْ بالشَّيخ الضَّرير يَشُمُّ رائحةَ ابنَهُ يُوسُفَ ، وَيقولُ لمنَ حَولَه : ألا تَشُّمونَ شيئاً؟!

فيقولونَ : أبداً . . لا شَىء . ماذا تقصد ؟

فيقولُ الشَّيخُ : إنى لأجدُ رِيحَ يُوسفَ . . لا شَكَّ إنَّكمُ ستقولون إنَّنى بدأتُ أخَرَّفُ .

قَالُوا : والله إنكَ لفى ضَلالكَ القَديمُ ، ولا تَزالُ هكَذا تَذْكُر

يُوسفَ وأخاه وتبكى حتى تكُونَ حَرَضاً أو تمُوتَ كَمَداً .

فلما جَاءَ البَشيرُ ، ألقى القَميصَ على وَجهْ الشَّيخ الضَّرير فارتدَّ بَصيراً ، وطار فَرَحاً وسَجَدَ لله شُكْراً وقالَ : ألم أقلُ لكم إنى أعلمُ من الله مالا تَعْلمونَ ؟ !

قالوا : يا أبانا استْغفر لنا ذنُوبَنا إنا كُنَّا خَاطئينَ .

قالَ الشيخُ بَعدَ أن رُدَّتْ إليه الرُّوحُ وعادَتْ إليه الحَياةُ : سَوْفَ استَغفر لكمُ ربِّى ، إنهُ هو الغَفُورُ الرَّحيمُ .

ولما دَخلُوا على يُوسُفَ ـ الوَزيرُ العَادلُ ـ آوىَ إليه أبويه وأجلَسهمَا بجواره تكْريماً لهُما ، وانحنَى الأخوةُ لهَ يُحيونَهُ ساجدينَ ـ كما هى عَادتُهُمَ .

نَظَر يُوسفُ إلى أبيه وقَالَ : هَذا يا أبَت تَأويلُ رؤيَاىَ من قَبْلُ وأنا صَغيرُ، أتَذكُر . . قَدَ جَعلَها ربِّى اليومَ حَقَّاً . وقد أحْسنَ بى إذْ أخْرَجنى من السِّجْن وجَاء بكمُ من البَدْو منْ بَعَد أن نَزَعَ الشَّيطانُ بينى وبَينَ أخوتى . إن ربِّى لَطيفٌ لما يشَاءُ . إنهُ هَو العَليمُ الحكيمُ .

ثم نَظَر يُوسفُ إلى السَّماء فى خُشُوعٍ ورَفعَ يَديه قَائلاً فى ضَراعَة :

« ربِّ قد آتَيتنى من المُلْك . وعَلَّمتنى من تأويل الأحاديث، فَاطر السَّموات والأرْض أنْتَ وَلَىّ فى الدُّنيا والآخرةَ . . تَوفَّنى مُسْلماً وألْحقنى بالصَّالحينَ » .

الرحلة فى طلب العلم « موسى والخضر »

وَقَفَ مُوسى عليه السَّلامُ ذَاتَ يَوْمٍ خَطيباً فى بنى إسرائيل يَعظُ النَّاسَ ، ويُفسِّر التَّوراةَ ، ويُبينُ لهم طريقَ الهُدى .

فَقَامَ واحدٌ من النَّاسِ وسَألهُ : يا مُوسى . هل فى النَّاسِ من هو أعْلمُ منكَ؟

وسكتَ مُوسى لحظةً تذكَّر فيها : أنَّهُ نبىٌّ أرسلَهُ الله إلى بنى إسرائيل ، وأن الله حَبَاهُ[1] بنعم وكَرامات كثيرة ، ووهبَهُ علماً وفَضْلاً ، فهو كليم الله تجلَّى لَه ربُّه عند الجَبَل ، فَخَّر مُوسى صَعقاً[2] ، ثُمَّ أحياهُ اللهُ ، وأنه ضرب بعصاهُ البَحْرَ فانفلقَ ، فكان كُل فرْقَ كالطوَّد العظيم ، وأنه أغرق ـ بإذن الله ـ فرعونَ رَأسُ الطُّغيان وَالكُفْر . وأنَه ضربَ بعصاهُ الحجر فانفجرتْ مَنه اثنتا عَشْرةَ عَيناً قدَ علمَ كُل أُناس مَشْربهُم ، وأن الله كَتبَ له فى الألْواحِ من كُلِّ شَىْء موَعظةً وتَفْصيلاً لكلِّ شَىْء ، وأنهُ أخَذَ الألواحَ وفى نُسختها هُدىً ونورٌ .

تُذكَّر مُوسى كُلَّ هذا ، ومَرَّتْ بخاطِرِه أحداثٌ كَثيرةٌ ، فَظَنَّ أنَّهُ

---

(١) حباه : أعطاه . (٢) صعقاً : ميتاً .

أعلمُ أهلِ الأرض . فقالَ للسَّائل :

« لا . . ليسَ فى النَّاس من هُو أعلمُ منّى » .

فعاتبهُ اللهُ سُبحانَه وتَعالَى ، وأوْحَى إليه : أن علْمكَ يا مُوسى هو قَطْرةٌ من مُحيط علْمُ عبادى المقُرَّبين . . . يا مُوسى هُناكَ عند مجمعَ بحر فارس وبحَرالرُّوم عبدٌ لى من عبادى المُخلْصَين ، قد آتيناه من لَدنَّا[1] علْماً ، هو أعْلَمُ منكَ يا مُوسى . فقال موسى : أىْ رَبِّ[2] ـ فكيفَ لىَ به ؟

قال اللهُ : تأخُذ حُوتاً (أى سَمكةً) وتجعلهُ فى مكتَل (مقْطَفٌ يُصْنعُ من الخُوص) ، فحيثُما فقدتَ الحُوتَ ، فهو هُنَاكَ .

وتجَّهزَ مُوسى للرِّحلة فى طَلب العلْم ، ومُلاقاة ذَلكَ العَبْد الصَّالح الذى حَباهُ اللهُ من فَيض عَلْمه ، فقَالَ لفتَاهُ ـ يُوشَعُ بن نُون :

« لا أبرحُ حتى أبلغُ مَجْمعَ البَحْرين ، أو أمضىَ حُقُبَاً »

وحَملَ فَتاهُ المكْتلَ الذى به الحُوت ، وسَارا إلى الشَّرق فى طَريق وَعر ، مَحْفوف بَالمخَاطر ، كُلُّه جبالٌ وقفارٌ حتى وصَلا إلَى صَخْرةً علىَ شاطىء البَحر عَظيمَةً ، وكانَا قد تَعبا من طُول السَّفَر ووعثاءَ الطَّريق .

وهُناكَ عند الصَّخْرة وفى ظلِّ شَجرة نامَ مُوسى ـ عليه السَّلامُ ـ وفَتاهُ إلتماساً للرَّاحَة ، ثُمَّ أصبَحَا وقد سكتَ عنهما التَّعبُ والألمُ ،

---

(١) من لدنا : من عندنا .

(٢) أى رب : يا رب

ثم أوْغَلا فى المسير . . وكانَ الحُوتُ قد اضْطَربَ لما أمطرَت السَّماءُ ـ وهُما عند الصَّخْرة بجانب البَحْر وخرجَ من المكْتل ووقَعَ فى الماء . وجاوز مُوسى وفتاهُ الصَّخرةَ، ونسىَ الغُلامُ أن يَخبُرهُ بشأن الحُوت .

وفى الطريق أحَسَّ مُوسى الجُوعَ والتَّعبَ ، فقالَ لفتاهُ :

« آتنا غدائنا . . لقد لَقينا من سَفرنا هذا نَصَبَاً » .

وتذكَّرَ الفَتَى ما حَدثَ للحوت ، فقالَ لمُوسى :

« أتَذكرُ عندما أوينا إلى الصَّخرة لنستريحَ وننامَ ، فإن الحُوتَ تحَّركَ فى المكْتل ووقَعَ فى اليَّم ، ولكنى نَّسيتُ ، أو أن الشَيطانَ أنسانى أن أخبركَ بما حدَثَ .

وهنا وقفَ مُوسى صَامتاً لحظةً يسترجعُ كلامَ الله له : «فحيثُما فَقَدتْ الحُوتَ ، فالعبدُ الصَّالحُ هُناكَ . فقالَ للفتى :

« حَسَناً . . ذلكَ ما كُنَّا نَبْغى »

ثم رَجَعا يَقُصَّان أثَرهُما على الرِّمال حتى انتهيا إلى تلكَ الصَّخرة، فإذا هُما برجل نائمَ عليه أطْمار [1] ، وَعلى وجْهه مَسْحَةٌ من الهُدوَء والسَّكينة والنُوَّر . فحيَّاهُ مُوسى ـ بعد أن استيقظَ ، فردَّ الرجلُ التحيةَ بأحسنَ مَنها ودعَاهُما للجلُوس . فجلسَ مُوسى وفتاهُ فى ظلِّ الشَّجرة بين يَدى العبد الصَّالح فقال مُوسى : أنا موسى رسَوُل بنَى إسرائيلَ خَرجتُ قاصداً العِلْمَ . فهل أتبعُكَ على أن تُعلمنىَ مما عُلِّمتَ رشُدْا ؟

---

(١) أطمار : ثياب خشنه بسيط

فقال العبدُ الصَّالحُ الذى آتاه اللهُ علماً وفَضْلاً : إنك لن تستطيعَ معى صَبْراً ، وكيفَ تصبرُ على ما لم تُحَطْ به خُبْراً ؟!

قال مُوسى : ستَجدنى إن شاء اللهُ صَابراً ، ولا أعْصى لك أمْراً .

قال الخَضرَ يضعُ شَرْطَ الصُّحبة : إن كُنتَ ستتبعنى لتتعَلَّمَ منى ، فلا تَسْألنى عنَ شىء حتى أُحْدث لك منه ذكْراً .

وقَبلَ مُوسى هذا الشَّرط ، وأعْطاهُ عَهْداً بأن يكُونَ تلميذاً مُخلْصاً مُطيعاً وَانطلقا يَمْشيان على الشَّاطىء يُسبحان الله ، ويُقْلبان أنظارَهُمَا فىَ ملكوت السمواَتَ والأرض .

وأرادَ العبدُ الصَّالحُ « الخضْرُ » أن يَعْبر البَحْر ، وكان مَعْروفاً للنَّاس بحكمته وعلْمه ، فَحملَهُ أصحابُ السَّفينة هو وصَاحبهُ « موسىَ » من غيرَ أجْرٍ ـ كَرامةً له .

وسَارتْ السَّفَينةُ ما شاء اللهُ لها أن تَسيرَ ، تَمْخُر عُبابَ[1] البَّحرَ ، وتُصارعُ المَوْجَ ، وتعلو وتَهْبطُ ، وقد التقت زُرْقةُ السَّماء مع زُرقة الماء على مدِّ البَّصر أمامَهم فى مَشْهد بديع رائع ، زادَهُ رَوْعةً ظُهورَ أسْراب من أطيارَ النَّورس تُحلِّقُ فى الجَّو ، وتُحوِّمُ حولَ السَّفينة كأنها تَحْرسُها بعنايَة من اللهَ . وبغتةً ، رَاحَ الخَضرُ ، وفى غفلَة من الرُّكاب ، يخلعُ لَوْحاً من السَّفينة ليخْرقها .

فارتاعَ[2] مُوسى ، وعَقَدتْ لسانُه الدَّهشةُ . .

---

(١) عباب : موج . (٢) فارتاع : أصابه فزع ورعب .

ووقفَ يُفكرُ فى الأمر : إن أصحابَ السَّفينة أكْرمونا ، وسَمَحوا لنا بالركُوب معهم من غَيْر أجْر ، والأوْلى بنا أنْ نَشْكُرهم على حُسْنِ ظَنهم بنا ، وَمُعاونتهم لنا . .

فما بَالُ أُستاذى الشيخُ يَخْرقُ سَفينتهم ؟! . . أليس الأوْلىَ به أن يَسُدَّ الخَرْقَ إن كان هُناك خَرْقاً فى السَّفينة حتى لا نَغْرقَ معها . إن النَّاسَ إذا ركَبوا البَحرَ وخافوا الغَرقَ رَمُوا بأمتعتهم وأغراضهم فى اليمِّ[1] ، وربما ضَحُّوا بواحد منهم على نَجاة الآخرينَ ، وسَلاَمتهم .

كان مُوسى سَادراً فى فكْره ، والسَّفينةُ تسيرُ بهم فى مَوج كالجبال ، والنَّاسُ آمنُون ، ومُنْشَغلوَن ، بينما الخِضرُ يخلعُ لوحاً من السفينَةَ ليخرقها !.

ولم يقفْ مُوسى مكتوفَ الأيدى ، وإنما مالَ على أُستاذه هَامساً مُعاتباً :

« أخَرقتَ السَّفينةَ لتغْرق أهْلها ؟! . . لقد جِئْتَ شَيْئاً إمْراً[2] ! »

فالتفت اليه الخضْر وقال بهدُوء أشَدُّ بأساً من عَصْف الرِّياح :

« ألم أقُلْ لكَ يا أخى إنك لن تستطيعَ معى صَبْراً . . ؟! .

وتدارك مُوسىَ العَهْد الذى بينهُ وبين أُستاذه ، وهو لم يَزَلْ بَعْدُ فى أوَّلِ الطَّريقِ . . الطَّريقِ إلى علمِ الرجلِ . فقالَ مُعْتذراً مُتعَلِّلاً

---

(١) اليم : البحر . (٢) امراً : عجيباً مُنكراً .

بنسيانه :

« لا تُؤاخذنى يا سيِّدى بما نسيتُ ولا تُرهقنى من أمرى عُسْراً »

وقَبل الخضرُ عُذْرَ تلميذهُ . . وبينما كانتْ السَّفينةُ تَسير بهم فى عُرْض البَحرَ إذا بعصفور جَميل يرفرفُ فى الجوِّ ثم يَحُطُّ على حَرْف السَّفينَة وينقُر فى البَحْر ليَشربَ . .

مَشْهدٌ رائعٌ جَعلَ الخضْر ينظرُ إليه بنفسٍ خاشعة وعَيْنٍ دامعة، ثمَّ يلتفتُ إلى صاحبه « موسَى » قائلاً :

« ما نَقُصَ علْمى وعلْمكَ يا مُوسى من علْمِ الله إلا ما نَقُصَ هذا العُصفورُ من هذَا البحر . . ! »

فهتفَ مُوسى مُسَبِّحاً لله . .

« سُبحانَ الذى يعلمُ ما فى السَّموات وما فى الأرض . . »

ورسَتْ السَّفينةُ على الشاطئ الآخر ، ونَزلَ مُوسى وأُستاذهُ الأرضَ الجديدةَ وقد نجَّاهما اللهُ ، وانطلقا يَمشيان حتى إذا لقيا غُلاماً ، ضربهُ العَبْدُ الصالح ضَرْبَةً قَويةً ؛ فقتلهُ !

وبُهتَ مُوسى وأصابهُ همٌّ عظيمٌ من هذه الجناية الكُبرى ، ووقفَ يتساءلُ فى لَوْعة وحَسْرة : « غُلامٌ فى عُمْر الزُّهورَ ، حَسَنُ الوجه ، بريءٌ ، لم يُسىءَ إلى أحَد ، ولم يرتكب جُرْماً . لماذا يقتله ؟! وما ذنبهُ ؟! . . ألا يعلم أستاذى الشيخُ أن القَتْلَ جَريمةٌ ، وأنها من أكْبرِ الكَبائرِ عند الله ؟!

لم يَقْنع مُـوسى برؤية الجـريمة ، ولم يُؤثر السُّكوتَ على ظُلْم ، وتَساءلَ فى نفسه حَائراً : هل أنا أتَّبعُ عَالماً تَقيـاً وَرَعاً ، أم أتَّبعُ قاتلاً مُجْرماً عربيداً ، يظلمُ العباد ويعيثُ فى الأرض فَساداً . . .

يَخرقُ سَفينةً أصحابُها مساكينُ ، ويقتُل طِفْلاً بريئاً غضَّاً ؟! ولا أدْرى ماذا يصنَعُ بعد ذلكَ ؟!

لم يَصبرْ مُوسى حتى يأتيهُ تَفْسيرٌ لذلك ، فقد كان الدَّمُ يغلى فى رأسه كـمـا يَغْلى الماءُ فى المرْجل ، ومـالَ على أُستـاذه يسـألهُ لائمـاً مُستَنكراً ، وهو يكظمُ غَيْظهَ :

أقتلتَ نَفساً ذكَّيةً بغير نَفْس . . لقد جئْتَ شيئاً نُكْراً ؟! فاستدارَ الشيخُ إلى مُوسى فى تَؤُدَةٍ وقالَ فى حِلْمٍ ـ مُذكِّراً تلميذهُ بالعَهْد الذى بينهم :

« ألمْ أقُلْ لكَ إنكَ لن تستطيعَ معى صَبْراً ؟!

وثَابَ[1] مُوسى إلى رشْده[2] ، وتذكَّرَ أنه تَخطَّى حُدودَ المعاهدة مَرتين ورأى أنه لا عُذْرَ لهُ بعدَ ذلكَ إن هو أقْحَم نَفْسَه فيما لا يَعنيه معَ شَيْخه ، فاستطردَ قائلاً :

« إن سألتُكَ عن شىء بعدها فلا تُصاحِبْنى ، قد بلَغْتَ من لَدُنِّى عُذراً ، وانطلقا يمشيان . .

حتى إذا أتيا أهلَ قريةٍ . وكانا قد أتعبهما السَّيرُ وأنهكَهمَا الجُوعُ ـ

---

(١) وثاب : رجع .

(٢) رشده : وعيه .

استَطعما [1] أهلها ، فأبَوْا [2] أن يُضَيفُوهُما ، . إذْ كان القوم بُخلاءَ أشحَّاءَ ، لا يعرفونَ الوَاجبَ ، ولا يؤدون حَقّاً لعابر سبيل ، ولا حقاً لضيف وكادَ الجوعُ وشُحُّ القوم أن يَعْصفا بموسى عَصْفاً ، وهَمَّ أن يُندِّدَ بالقوم ويَعيبَ فيهم شُحَّهم وبُخلَهمُ وسُوْءَ طباعهم ، لكنه كَظَم غَيْظَهُ ، وكَمَّ فَمهُ ، ولَمْلَمَ نفسهُ ، وآثَرَ السُّكوتَ على مَضَضٍ [3] . .

فلقد تسَّرعَ قبلَ ذلكَ ، ولا ينبغى له أن يُكرِّر خطأهُ ، فما عليه إلا أن يتحمَّل الجوعَ ويحتسبُ أجْرهُ عند الله ، فقد نَذَر نفسُه لله ، خَرجَ قاصداً وجَه الله ، طالباً للعلمِ ، فليصْبر قليلاً حتى يَحصُلَ على مُراده .

ثم سارا ـ الشيخُ وتلميذَهُ ـ فى أزقَّة القريةِ وشَوارعها ، حتى استَوقفهُما شَىءٌ ما .

وَجَدَا جداراً مائلاً ، يكادُ أن يَنقضَّ فيقعُ مُتَصدَّعاً مُتَهدِّماً . فشمَّر العبدُ الصالحُ عن ساعده ، وأخذَ يُقيمُ الجدارَ ، ويُدعِّمهُ ، ويُسنِّدهُ وقضَىَ فى ذلك هو ومَوسى وقتاً طويلاً ، وبَذَلاَ جُهْداً كبيراً ، واستحقَّ العبُد الصَّالحُ على ذلكَ المجهود شُكْراً وأجراً حَسَناً .

ولكن لم يتقدمْ أحَدٌ لهم بشُكر ولا بأجْر . ومَضى الخضْر فى طريقه يصُحْبة تلميذه مُوسى ، مُطمئنَ النفس ، مُرتاحَ الضَّميرَ .

وتَعجَّبَ مُوسى من أمر أُستاذه ، وفقدَ احتمالَهُ ، وعيلَ [4] صبرُ ،

---

(١) استطعما : طلبوا طعاماً .
(٢) فأبوا : رفضوا .
(٣) مضمض : ألم .
(٤) وعيل : نفد .

ولم يُعقِّبْ على ذلكَ إلا بكلمات :

« لو شئْتَ يا سيِّدى لاتْخذتَ على تقويم الجدارِ أجْراً ، وعلى هذا المَعْرُوف شُكْراً . »

وهنا استدار الشَّيخُ وصَاحَ فى حَزْمٍ وعَزْمٍ : « هذا فِراقُ بينى وبَيْنكَ وسأنبئكَ بتفسير ما لم تستطع عليه صَبْراً :

وغَضَّ مُوسى طَرْفَهُ(١) حَياءاً ، وأطرقَ رأسَهُ خَجَلاً ، وأصْغَى إلى أُستاذه فى هُدوء : « إسمَعْ يا مُوسى . . إن السَّفينةَ التى ركبناها فى أوَّل الرِّحلة لنعبرَ البَحْر كانتْ لفتية مساكينَ يَعْملونَ فى البَحْر ، ويَرْتزقونَ منها ، فأردتُ أن أعيبها ، لأنه كان وراءهم ملكٌ غاشِم يأخذُ كُل سَفينة تمرُّ من أمامهُ غَصْباً »

« وأما الغُلامُ الذى لقيناهُ فى الطَّريق كان أبَواهُ مُؤْمنيَن ، فخشينَا أن يُرهقهُما طُغياناً وكُفْراً ، فأردتُ أن يُبْدلَهما رَبُّهما غلاماً خيراً منهُ زكاةً وأقرب رُحْماً . .

« وأما الجدارُ يا مُوسى الذى أقمناهُ مُنذ قَليل ، فكانَ لغُلامين يَتيمين فى المدينة ، وكان تحتهُ كَنْزٌ لهما وكان أبُوهُما رجلاً صالحاً ، فأراد ربُّكَ أن يكْبرا ، ويبلغا أشُدَّهُما ، ويستخرجا كَنْزهَما رحمةً من ربِّكَ . . وما فعلتُ ذلك عن أمْرى . .

إنما ذلك يا موسى تفسيرُ ما لم تَسْتطع عليه صَبْراً . .

---

(١) طرفه : عينه .

ورفعَ مُوسى رأسَهُ ، وقد أدركَ جَهلَهُ الفَاضِحِ ببواطنِ الأُمور ، وأسرار الغُيوب ، وعَلمَ أن الله يصطفى من عباده من يشاءُ ، ويَجْتبى[1] من خَلْقه من يَشاءُ .

وسمعَ موسى عُصْفوراً يَصْدحُ على غُصْنِ شَجرة ، فتذكّر كلمةَ الخضْر لهُ عندما رأى العُصفورَ يَحُطُّ على حَرْفِ السَّفينَة ويَنْقُر فى الماء ليشربَ :

« ما نَقُصَ علْمى وعلْمك يا مُوسى من علْمِ الله إلا ما نَقُصَ هذا العُصفورُ من هذَا البَحْرِ »

هُنَالكَ وقفَ مُوسى حائراً حَالماً فقد كان يُرِيُد أن يَسْلُك طَريقاً يلتمسُ فيه علماً نافعاً يُقربهُ من ربّهَ ، وكان يَودُّ أن يتَّبعَ أُستاذَهُ لينهلَ من فَيْضِ علْمَه ، ولكنَّهُ لم يَصْبر ، وأخْفَقَ[2] فى أوْل دَرسٍ . .

لا عليه إلا أن يَرْجعَ من حَيْثُ أتى ، ويتواضَع بين يدى ربّه ، وشكَرَ مُوسى شيخَهُ « الخضْر » على الصُّحبة ، والوقت الذى قضاه معهُ . ثم سَلَّم عليه ، وقَفَلَ راجعاً ، يُسبِّحُ اللهَ ، ويَعْلَم أنه : « وما أوُتيتم من العِلْمِ إلا قليلاً »

---

(١) يجتبى : يُقرِّبه منه .

(٢) وأخفق : فشل .

طالوت وجالوت

اجتمعَ ملأٌ[1] من بَنى اسرائيلُ بعد أن عزَّ عليهم التَشَرُّدُ والتَمزُّق والحرْمان والضَعْف وقالوا لنبىٍّ لهم ـ من بعد مُوسى : يا نَبىَّ الله ابعثْ لنا مَلكاً يقاتلُ فى سَبيل الله .

فقال لهم نبيُّهم : هل عَسَيتُم إن كُتبَ عليكُم القتَالُ ألا تُقَاتلوا ؟

قالوا : ومالَنا ألا نُقَاتلَ فى سبيل الله ، وقد أخْرجنا من ديارنا وأبْنائنا ؟

كان الملكُ الطَّاغية « جالوتَ » يَسُومهُم سُوءَ العَذاب ، ويُذيقُهم ألوانَ الهَوان ، ويُشَرِّدهم فى البِلاد ، وذلكَ بعدما كانوا فى عِزَّة ومنعة بطاعتهم للهَ .

وقال لهم نبيهم : إن الله قد بَعَثَ لكم « طَالوتُ » مَلكاً .

وكان طالوتُ رَجلاً بسيطا وراعياً فقيراً[2] ، وهبُه الله قُوةَ البِنْية ، ومَهابَةَ الطَّلعْة ، وعلماً غَزيراً ، وكانَ يأكلُ من عَملِ يَدهْ .

فَقَال القومُ فى استنْكَارٍ واسْتِيَاءٍ : كيفَ يكونُ لطالوتَ المُلْكُ علينا

---

(١) جمع من الناس .

(٢) ذكر بعض الكتاب أنه كان راعيا ، وقال آخرون أنه كان سقاءً ، والله أعلم .

ونحنُ أحقُّ بالمُلك منهُ ولم يُؤتَ سَعَةً من المَال ؟!

فقال لهم نبيُّهم : إن الله اصْطفاهُ عليكم ، وزادَهُ بَسْطَةً فى العِلْمِ والجِسمِ ، والله يُؤتى مُلكَه من يشاءُ ، والله واسعٌ عليمٌ . .

. . يا قوم إن الله أعْلمُ بكم ، وأعلم بما يُصْلحكم ، والمَالُ وحدهُ لا يرفعُ صاحبهُ إن كان صاحبُهُ ضعيفَ النَّفْسِ ، خائرَ العَزْمِ وَضيعاً .

فعادُوا يسألونَ نبيهم : يا نَبىَّ الله . . ما آيةُ أن الله اختارهُ واصطفاهُ ؟

قال : إن آية مُلْكه أن يأتيكُم التَّابوتُ فيه سكينةٌ من ربِّكُم وبقيَّةٌ مما تركَ آلُ مُوسى وآلُ هَارونَ تحملهُ الملائكةُ .

وكان بنو إسرائيلَ يضعونَ فى هذا التَّابوت (الصُندوق) التَّوارةَ ـ كتابُ الله الذى أنزلُه على مُوسى ، وعصا مُوَسى وعمَامَتُه وثيابهُ ، وَكَانُوا يُقَدِّسُون هَذا التَّابوتَ ويتباركونَ به ، وإذا خَاضُوا المَعَارِكَ أخذوهُ مَعَهم ، فكَان اللهُ ينْصُرهم ببَركة هذا التَّابوت ، لكنَّهُم لَمَّا فَسَقُوا وفَسَدُوا مكَّن اللهُ منهم عَدوَّهمُ ، فَسَلبُ منهمَ التَّابوتَ ، وانقلبوا صاغرينَ .

وأخيراً أذْعَنوا لأمر نَبيهم ، ورَضُوا بمُلْك طالوتَ عَليهم وتركُوا له اختيارَ من يشاءَ فى صُفُوف جَيْشه . وكَانَ طَالُوتُ ـ ذَلكَ الرَّجلُ المَهيبُ ـ لا يختارُ إلا الشُّبانَ الشِّدادَ من ذَوى الغَيْرة والنَّخوة . وأخَذ يُعَدُّهُم إعداداً عَسْكرياً ، ويُدربهم على خَوْض المعارك والحرُوب .

ولَبثَ فيهم مُدَّةً حتى جَهَّزَ جَيْشاً عظيماً ، وحَشْداً كبيراً .

فَلَمّا فَصَلَ طَالُوتُ بالجُنودِ ، وخَرجُوا إلى الصَّحراءِ، عَطَشُوا ، فسألوهُ الماءَ .

فسأل اللهَ ، فقال اللهُ : يا طالوتُ : قُل لهم : إن الله مُبْتَليكُم بنَهَر، فَمن شَربَ منه فليسَ منّى ، ومن لم يَطْعَمهُ فإنه منّى ، إلا من اَغترفَ غُرفَةً بيدَه .

وَسَار الجيشُ يُثيرُ الغُبارَ وَيَنشُر الدَّمارَ حتى وَصَلَ إلى نهر عَظيم ، عَذْبٌ ماؤهُ ، سائغٌ شرابُهُ ، فراحوا يُعبُّونَ من الماء عبّاً ، ويقولونَ : ماذا يَبْغى طَالوتُ من تَحْريم ماءِ النَّهر علينا ونحنُ نكادُ يقْتُلنا العَطشُ؟! .

فشَربُوا منه إلا قليلاً من الجُنود ، أمْسكوا عن الشُّرب طاعةً لله وطاعةً لقائدهم ، فكانت هذه القِلّةُ المؤمنةُ المُباركةُ هى التى أرادها اللهُ لَخوض الشَّدائد ، والصَّبر على المكاره ومُجابهة العدو .

وجَعلَ طالوتُ هذه القلةَ المؤمنةَ من جُنوده قَلْباً لجيشه، وجَعَل المُتخاذلينَ . الذين شربوا ـ فى المُؤخرة والجَنْب ، يُرْهِبُ بكثرتهم أعداءَهُ ، وهُم فى الحقيقة غُثَاءٌ[1] كَغُثاء السَّيل ؟

فلما رأى الغُثاءُ ـ الجنودُ المُتخاذلون ـ جُيوشَ جَالوتَ المُحتشدةَ أمامهمُ ، بَانُوا على حقيقتهم ، وأعلنُوا عن جُبنهم وَخَورهم ، وقالُوا فى تخاذل : لا طاقَةَ لنا اليومَ بجالوتَ وجُنوده !

وكادوا يُثيرونَ الزَّعزعَة فى صُفوف الجَيشِ ، لولا أن تصدَّتْ لهم

(١) مايحمله السيل من قش وزبد .

الفئةُ القليلةُ المؤمنةُ يُشجعونهم ، وَيَشدُّون من أزْرهم ، وَيَبثُّون فيهم رُوْحَ الجهاد ، قائلين :

« يا قوم إننا خَرجَنا فى سبيل الله دفَاعاً عن أوْطاننا ، وكم من فئة قليلة غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله ، فاَستَعينوا واصْبرَوَا وقَاتلوا ، وَماَ النَّصرُ إلا منَ عند الله العزيز الحكيم . . »

وتَقَدَّمُوا نحوَ جَيْش « جَالوتَ » الهائلَ بعدده وعَتَاده ، ورفعُوا أصواتَهمُ بالدُّعاء : « ربَنا أفرِغ علينا صَبْراً ، وثَبِّت أقدامَنا وانْصُرنا على القَوْمِ الكافرِين » .

ودارتْ رحَى الحرب . .

فتقَّدمَ جالوتُ مُفَاخراً بقوته ، مُباهياً بسطوته ، وطلبَ المُبارزةَ ، فخرجَ إليه فارسٌ ، فأطاحَ جالوَتُ برأسه وأرْداهُ قَتيلاً !

هذا وبنو إسرائيلُ واجمونَ ، خائفونَ من بَطْش جَالوتَ الطَّاغيةَ ، كُلما خرجَ إليه فارسٌ سَقطَ قتيلاً ، أو عَادَ جَريحاً .

وبلغتْ القلوبُ الحنَاجرَ من الرُّعب ، وَجالوتُ يختالُ بفرسه ، شَاهراً سيفَه ، يُطيحُ بالرؤسِ ، ويُسيلُ الدَماءَ ، ويَصيحُ بزهْوٍ :

هل من مُبارز ؟! . . هل من مَزيد . . ؟!

وكفَّةُ النَّصر فى هذه المعركة كانتْ راجحةً لجيش جَالوتَ الطَّاغيةَ وهنا انْشَقَّت الصُّفوف عن فَدائىٍّ جرئ ، ثارتْ ثَورتهُ ، وفارتْ حَميَّته ، وأعلَن على الملأ أنه خارجٌ لمبارزة هذا المغرور « جالوت » .

فخاف عليه زُملاؤه العَسكر وقالوا له : لا تذهبْ . . إنك هَالكٌ لا مَحَالةَ . . فمن ذَا الذى يَزجُّ[1] بنفسه فى عرينِ الأسدِ ثم يَرجعُ سَالما؟! .

ولكَّن طالوتَ قائدَ جيش بنى اسرائيلَ انشرحَ صدرُهُ لهذا الفدائىِّ الجَسُور[2] ، ودعا له بالنصر ، ووعَدَه بأن يزوجه ابنتهُ ، ويجعلهُ ولىَّ عهده فى مملكته إن هو قَتلَ جالوتَ !

كان هذا الشَّابُ الفدائىُّ يُدْعَى « داود » وكان العَرْضُ الذى قَدَّمهُ له قائده سَخياً ، لكنه لم يكن وَحْدَهُ كافياً لإغراء الشَّاب على التضحَية . . فَلقد امتلأ صدرُهُ غيظاً ورأى أن يثأر لقومه ، ويَدْرأ عنهمُ الذُّل والعَارَ .

وفكَّرَ الشَّابُ وقدَّرَ ، ورأى أن يُصَوَّبَ لجالوتَ سَهْماً من كَنانته على غَفْله منه ، فالحربُ خُدعةٌ ، وهذه فُرصةٌ

وتقدَّمَ الفدائىُّ من جالوت على حَذَر ، وما هى إلا لحظةٌ صوَّبَ فيها وسَدَّدَ ورَمَى ، وأصابَ السَّهمُ جالوتَ فى مقتَلٍ فخرَّ العملاقُ صَريعاً . وقتلَ داودُ جالوتَ !

ثم التحَمَ الجَيشْان بعد أن انزاحَ عن بنى إسرائيلَ شَبَحُ الهزيمة وكابوسُ الطَّاغية ، وأبلَوا فى المعركة بلاءً حَسَناً ، وارتفعتْ صيحاتُ النَّصر ، وهزموهَم بإذن الله . .

ورجَع الجَيشُ مُنْتصراً ، وتَوَّجَ الملكُ « طالوتُ » الفدائَى « داودَ » بتاجِ النَّصر ، وبَرَّ بوعده لهُ ، فزوَّجَهُ ابنتُه .

---

(١) يدفع بنفسه . (٢) الجرئ .

❖ صاحب الجنتين ❖

كانُ فى بَنى إسرائيلُ أخوانِ رَزَقها اللهُ رِزْقاً حَسَناً من ثَرْوةٍ عَظيمةٍ كانتْ لأبيهما .

أمَّا الأولُ فَقد رأى الفُقَراءَ من حَوله كثيرين ، والمساكينَ يَبيتُونَ جياعاً ، فأخذَ على نفسه عَهْداً ألا يتركَ مَحْروماً إلا أعانهُ ، ولا سائلاً إلَا أعْطاهُ .

وأخذ يُنْفقُ من ماله فى سبيل الخَير حتى كادَ مالُه أن ينفَدَ . وكان مَسْرُوراً بذلكَ راضياً كلَّ الرِّضى ، حامداً اللهَ على أنْ وَهَبهُ تمامَ العافية ، وعَلى أن رزقَهُ قلْباً ذاكراً ولساناً شاكراً . وهكذا عاشَ حياتَهُ قَانعاً بمَا قَسَمهُ الله لهُ

وأما أخاهُ « قَطروسُ » فقد أمَسْكَ مالَهُ عن الإنفاقِ فى سَبيل الخَيرْ ومُساعدة الضُّعفاء .

وكانَ يأتيه الجَائعُ فلا يَرقُّ له قَلْبهُ ، ويَمُرُّ به الفقيرُ فلا يَعْبأ به . وباركَ اللهُ له فى رزْقه ، فكانتْ له جَنتَّان (حديقتان) من أعْناب ، يُحيطُهما سُورٌ عظيمٌ من أشجار النَّخيلَ ، وبين الحديقتين كانتْ له زُروعٌ أخرى ، وحُقُولٌ جَميلةٌ ، ونَهرٌ يَجرى .

خَيرٌ كثيرٌ ، ورزْقٌ وَفيرٌ ، وأولادٌ حسَانٌ ، ونعَمٌ تَستحقُّ شُكْرَ المُنعم سُبحانهُ ، لكنَّ قَطروسَ اللئيمَ شَغلهُ العَّمهُ عنَ شُكْرِ المُنعم فتكبَّر وتجبَّر ، وأصابهُ هَوَسُ الغُرورِ ، فنَسى اللهَ ولم يَعُدْ يؤمنُ بالبْعثِ بعد الموتِ .

وذات يوم كان أخوه المُؤمن يزورهُ فى حديقته الوَارفة ، وبينما هما يسيران بين الكُروم الخضراء ، والعَناقيدُ تتدلَّى من الشُجيرات كأنها الثُّريا فى السَّماء ، إذْ بالأخ المتكبر قَطْروسُ يقولُ لأخيه المؤمنُ ، وهو يُطلقُ ضحكةً عـاليةً : أنا أكثُر منكَ مالاً وأعزُّ نَفَراً .

وتأذَّى الأخُ المؤمنُ من هذه الكَلمةِ ، وقالَ لأخيه المُتكبرُ بلسانِ المودَّة والنَّصيحة :

يا أخى قَطْروسُ . . مالكَ تقولُ لى هذا الكلامَ ، أنسيتَ أن هذه النِّعمُ التى تَرتع فيها هى من إحسان الله لكَ ومن فَضْله عليكَ .

يا أخى أليسَ من الأفضل أن تَقُولَ عندما تَدْخل حديقتكَ : « ما شَاءَ اللهُ لا قُوةَ إلا بالله ، إن تَرنَى يا أخى أنَنى أقلَّ منكَ مالاً وولداً فعسى ربَّى أن يُؤتينى خَيْراً من جَنَّتكَ ، أو يُرسلَ عليها ربى حُسْباناً من السَّماء فَتُصبحَ صَعيداً زَلَقاً ، أو يُصبحَ ماؤها غَوْراً ، فلا تستطيعَ له طَلباً .

نَظَرَ قَطْروسُ إلى الأشجار والثمار ، وإلى جداول الماء التى تنسابُ رقراقةً عَذْبةً بين الزُّروعِ ، فأعجبهُ هذا النَّعيمُ وقالَ : ما أظنُّ أن تبيدَ

هـذه الحديـقةُ أبداً ، ومـا أظنُّ الساعةَ قائمةً ، ولـئن رُددتُ إلـى ربى لأجدَّن خيراً منها مُنْقلباً . قال أخوهُ المؤمنُ : وَيْحكَ . . أكفرتَ بالله الذى خلقكَ من تُرابٍ ثُمَّ من نُطْفةٍ ثـمَّ سَـوَّاكَ رَجُلاً غنيـاً ثَرياً تَرْفُلَ فى النَّعيمِ . .

يا أخى إن كنْتَ تكفُر بالله ، فإننى أشْهُد أنه لا رَبَّ لى سواهُ ، وأنه لا شَريكَ له فى مُلكه ، وأنَّهُ يَبْسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويَقْدرُ .

يا أخى لا تُعَيّرنى بفقرى ، ولا تَتَعالى علىَّ بغناكَ . إن كُنتَ ترى أننى الآنَ أقلَّ منكَ مالاً وولداً فعسىَ ربِّى أن يُؤتينى خَيْراً مما أتاكَ ، بأن يُدخلنى جَنةَ الخُلد ، جنةً عرضها السَّمواتُ والأرضُ . . جنةً أفضلُ من حديقتكَ

يا أخى « قَطْروسُ » . . إياكَ والغُرورُ ، واحذر انتقامَ الله فيُرسلَ على حَديقَتكَ صاعقةً أو ريْحاً عاصفةً تطيحُ بأشجارها وثمارها وتَجعلهَا حَصيداً كان لمْ تَغْنَ بالأمس أو يجعلَ اللهُ ماءَها يَغُورُ فى جَوْفِ الأرضِ ، فَيغيضُ فلا تستطيعَ له طَلباً .

وأخَذتْ قطروسُ العزَّةُ بالإثمِ ، وأخذهُ الغُرورُ ، فلم يعبأ بنُصْحِ أخيه المؤمنِ لهُ .

وفى المساء كانتْ الحديقَةُ خاويةً على عُروشها ، نزلتْ عليها عاصفةٌ أحرقتْ الأشجارَ والثمارَ ، وجعلتْ أرْضها قاعاً صَفْصَفاً .

وهكذا تَبدَّلَ الحالُ ، وأصْبحتْ الجنةُ التى كانتْ بالأمس مُثمرةً ويانعةً خَراباً يَبَاباً ، لا تَسرُّ الناظرينَ .

وفى الصباح رأى قَطروسُ جَنَّتَهُ وما نَزلَ بها ، فَجُنَّ جُنونهُ ، وطارَ صَوابُه ، وأصبحَ يُقَلبُ كَفيَّه أسَفاً ونَدَماً ، ويتلفتُ حَوْلَه يأساً وعَجْزاً ، وهو يتحسَّرُ على ما أنفقهُ فيها من جُهْدٍ ومَالٍ .

كان قَطروسُ الكافرُ يُردِّدُ بلسانِ الحَسْرةِ المُرَّةِ :

يا ويلتى . . ليتنى لم أشْرِك بربى أحداً .

« ولم تكن له فئةٌ ينصرونَهُ من دُون الله وما كان مُنْتصراً » ضاعَتْ جنته وذَهبَ غنَاهُ ، ولم ينفعه أولادُه ، وقَعَد قطروسُ الكافرُ على الأرض مَلُوماً مَحسُوراً . . يُفكرُ بعقلٍ نصف مَشْلول من أثر المُصيبة ، وينظرُ فى تبدُّلِ حَاله ، ويتأمَّلُ فقرهُ منْ بَعْدِ غنىً ، وذِلَّتهُ منَ بعدِ عزَّةٍ .

وهنا تذكَّرَ كلامَ أخيه المؤمن . فراحَ يتكلمُ ويبكىَ : « لقد ذهبَ عنى المالُ ، ولم تنفعنى كَثْرَةُ الولَد ، ولم يَبْقَ أمامى إلا وَجْهَكَ الكريمُ وبَابكَ الذى لا يُوصَدُ يا أرحمَ الرَّاحمينَ » . .

سليمان والهدهد وملكة سبأ

خرجَ نبىُّ الله سُليمان ـ عليه السَّلام ـ بجَيشه العَظيم قاصداً بيت القدس ، للحَجِّ ، وكان قد أمَرَ رَجالَهَ ببنَاء هيكلِ هناك عظيمِ الأرْكان ، شامخِ البنْيان للعبادة والصَّلاة .

وبينما هو يسيرُ فى مَمْلكته يُحيطُه الجُنْدُ ، ويُظللُّهُ الطيرُ ، إذا به يرى أرضاً طَيبةً بها زُرْع وخُضرةٌ ، فحطَّ بالمكان ليستريحَ .

والتمسَ الناسُ الماءَ فلم يجدوهُ ، فتلفَّتَ نبىُّ الله سُليمانَ يبحثُ عن الهُدهد . . وكان هو دليلهُ على الماء أينما ذهبَ وحَيْثُما حلَّ . ولم يجده .

فقال فى دَهْشة : مالى لا أرى الهُدهدَ . . أم كان من الغَائبين؟!

فقالت جَماعةٌ من الطَّيرِ : لا نَدْرى يا نبىَّ الله أين هو ، ولم يخُبرنا إلى أين كان ذاهباً ؟

فقالَ نبىُّ الله سُليمانَ فى غضب : والله لأُعذبَّنهُ عذاباً شديداً ، أو لأذبحنَّهُ أو ليأتينَّى بسلطان مُبين .

ولم يُمْض وقتٌ طَويلٌ حتى رأتْ الطيورُ الهدهدَ مُحلِّقاً فى السَّماء قادماً من جهة المَشْرق . فطار إليه النِّسرُ ليُخبره بالأمر ، وبادره قائلاً : أين كُنتَ يَا عَزيزى الهُدهد . . إن نبىَّ الله افتقدَكَ وسأل

عنك ، وتوعَّدكَ أن يُعذبك أو يذبحك إن أنتَ لم تأته بنبأ يقين ، أو بعُذْر شديد .

كان الهدهدُ ينضحُ عرَقاً ، ويلهثُ ، وكان بادىَ الإجهاد والتَّعب ، ويبدو عليه أثرُ السَّفر .

ولمْ يَقُلْ شيئاً للنسر ، بل توجَّهَ مُباشرةً إلى نبىِّ الله سليمان الذى كان جالساً مع وزيره ، وألقى التحيةَ ، وهو يُطأطأُ رأسه ويضمُّ جناحيه تواضُعاً وأدباً .

فقالَ سُليمانُ غاضباً : أين كُنتَ ؟

قال الهدهدُ بعد أن رَفعَ رأسَهُ : يا نبىَّ الله أحَطْتُ بما لم تُحطْ به ، وجئتُكَ من سَبأ بنبأ يقين . .

قال سُليمانُ : وما هو ؟

قال الهُدهدُ : إنى وجَدتُ امرأةً هُناك تملكُهم وأُوتيتْ من كُلِّ شىء ولها عَرْشٌ عظيمٌ . .

قال سُليمانُ : أحقٌ هذا ؟!

قال الهُدهُد : أى وربِّى إنه لحقٌ ! . . وجدتُها يا نبىَّ الله وقومها يَسجدونَ للشمس من دُون الله !

ثم أردفَ قائلاً بحسرة وغَيْرة : ألاَ يسجدون لله الذى يُخرجُ الخَبْأَ فى السَّموات والأرض . .

قال سُليمانُ : هذا أمرٌ خطيرٌ . . سننظرُ أيها الهُدهدُ أصدقْتَ أم كُنتَ من الكاذبين . . إذهبْ الآن لتدلَّ الناسَ على الماء ، ثم ائتنى .

وطلبَ سليمانُ قرْطَاساً وقلماً ، وكَتبَ فى الصَّحيفة : «بسم الله الرحمن الرحيم ألا تَعْلوا علىَّ وائتونى مُسلمين» .

ثم طلبَ الهُدهدَ ، ووضع الكتابَ ـ بعد أن طَواهُ ـ فى منْقاره وقال له : إذهب بكتابى هذا فألْقه إليهم ، ثم تولَّ عنهم ، فانظرَ ماذا يرجعون .

فانطلقَ الهُدهدُ محلِّقاً فى السَّماء يحملُ إلى ملكة سَبأ ذلك الكتاب الكريم .

طار الهدهدُ يقطعُ الصَّحارى الشاسعةَ ، ويعبرُ الأنهارَ ويجتازُ الجبالَ حتى وصل إلى اليمن . ودخل قصرَ الملكة ، وألقى إليها الكتابَ وكانت بُلقيسُ فى غرفتها شبهُ نائمة .

انتبهتْ الملكهُ ، وأخذتْ الكتابَ فى دهشة ، وهى تنظرُ إلى الرسالة ، وإلى الهُدهد الذى ألقاها إليها ثم وقف علَى النافذة ينتظر . وقالت مُحدثةً نفسها :

« هذه رسالةٌ أتى بها الهُدهدُ . . لابد أنه أمرٌ جليلٌ . . وإنَّ ملكاً رُسُله الطيُر لهو ملكٌ عظيمٌ » .

وفَتحتْ الكتابَ برفقٍ ، وقرأتهُ على مَهَلٍ . ثم أطرقتْ واجمةً مُفْكرةً . .

نَهضَتْ بُلقيسُ ، وأرسلتْ إلى وزُرائها وأهلِ مَشُورتها ليحْضُروا فى الحال . . لأن الأمرَ خطيرٌ .

وعندما اجْتمعَوا فى القَاعة خَرجتْ إليهم وقالت :

« أيُّها الملأُ . . إنى أُلقى إلىَّ كتابٌ كريمٌ . . إنه من سُليمانَ وإنه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علىْ وائتونى مسلمين » .

وسَادَ الصمتُ فى القاعة ، وأجالتْ بلقيسُ عَينيها فى وجُوه الرِّجال فرأت على مُحَيَّاهُم الاهَتمامَ الشديدَ والحيرةِ .

فقالت :

« ياأيها الملأُ . . أفتونى فى أمرى ، ما كُنتُ قاطعةً أمراً حتى تَشْهدون » .

فقالوا بثقة ـ بعد تَشَاور وتحاور : أيتها الملكةُ العزيزةُ . . نحن أُولُوا قوة وأولوا بأسٍ شديد ، والأمرُ إليكِ فانظرى ماذا تأمرينَ » .

فأطرقتْ بُلقيسُ تفكرُ وتفكرُ ، وتُقلِّبُ الأمرَ على جهاته ، فهى تعرفُ تماماً أن الحربَ دمارٌ وخرابٌ ، وأن فيها خُسْراناً وهَوَاناً . .

فقالت : إن المُلوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذلَّةً ، وكذلك يفعلونَ ، وإنى مُرسلةٌ إليهم بهديةٍ فناظرةٌ بِمَ يرجعُ المُرسلون .

ودَعَتْ رجلاً من أشراف قومها وقالت له : سَأرسلكَ إلى سُليمان فى بلاد الشَّام بهذه الهدايا والعَطَايا . وكانت أحْمالاً من الذَّهب والفضةَ ، والياقوت والجواهر ، والعُطور والمسْك .

قالَ الرجلُ : سَمعاً وطاعةً أيتها الملكة .

فقالت : انظرْ إلى الرَّجل عندما تدخلْ عليه ، فإن نَظَر إليك غاضباً فاعلم أنه ملكٌ ، فلا يُهولَنَّكَ منظرُه . .

وإن رأيتهُ باشَّاً وديعاً ، فاعلم أنه نبىٌ مُرسَلٌ واتنى منه بجواب على رسالتى هذه ـ وناولتهُ رسالةً .

كانَ الهُدهدُ يسمعُ هذا الحِوارَ ، ويرى هذا المشهد وهو مُنْزوٍ فى رُكنٍ غير بعيد .

وعندما خرجَ رسولُ بُلقْيس من المدينة فى مَوْكب هائل عظيم يحملُ الهدايا الكثيرةَ ، طارَ الهدهُد الذَّكىُ إلى نبىِّ الله سُليمانَ يحملُ إليه أنباء ما جرى فى قَصْرِ ملكة سبأ .

فلما علمَ سليمانُ بالأمر ، أمَر الجنَّ أن يُمهِّدوا طريقاً من لَبنات الذَّهب والفضةُ يوَصِّل إلى مدخل القصر ليسير عليه وفدُ المَلكة الفاتنة .

وجَلسَ سُليمانُ على كُرسيه مُحاطاً بالأُبَّهة والعَظمة ، إلى جواره وزيرهُ وبعضُ رجاله ، وفى الدِّيوان طيورٌ جَميلةٌ ، ويُحيطُ بالمكان حدائقُ ذاتُ بَهْجة .

وأقْبلَ الوفدُ المُحَّملُ بالهدايا ، ومَشَوا على الطَّريق المُوصل إلى القَصْر وهم فى ذُهول . . أقدامهم تَطَأ أرضاً ممهدةً بلبنات من الذهب الخالصَ والفضة النقَّية ، ونظروا على قارعة الطريق فَرأوا ما هو أعجبَ . . رأوا حَيوانات كثيرة وجميلة تَرْتعُ فى الحدائق ، وطيوراً رائعةً تُغردُ وتَصْدَحُ على غُصونَ الشجر . وهالَهم الموقفُ ، وحَسبُوا أنهم يسيرونَ فى قصر مَسْحور ، أو فى رَياض الجنة . .

وتَضاءلَ رسولُ المَلكة ، وتَصاغَر القَومُ الوافدونَ ، ودخلوا القَصْرَ

المهيبَ على استحياء وَجَل .

ووقف رسول بُلْقيس أمام سليمانَ صاغَراً مُضْطرباً، فما جاء به من الهدايا لا يُعَدُّ شيئاً مَذْكُوراً بجانب هذا المُلْك العريض .

لكنَّ نبيَّ الله سُليمانَ استقبلَ الرجلَ بوجهٍ باشٍ وبلسان طَلْقٍ مما أدخل بعضَ الطُمأنينة والسلام على قَلْبه .

وجلسَ الرسولُ بَعد أن قدَّمَ إلى سُليمانَ رسالةَ الملكة وهو مأخوذٌ بما رأى من عجائب . وقدَّم الهدايا .

قرأ سُليمانُ الرسالةَ ، ثم نظر إلى الرَّجُل قائلاً : وما هذه؟ .

قال الرجل : مولاى . . هذه هدايا بسيطةٍ تقدمها مولاتى الملكة إليك .

قال سليمان بحزم : أتمدُوننى بمال ؟! . . فما آتانى اللهُ خيرٌ مما آتاكُم . . بَلْ أنتُم بهديتكم تَفْرحون .

قال الرجلُ ضارعاً : مَوْلاى . !

رَدَّ سليمانُ مُقاطِعاً : أيُّها الرجلُ . . ارجع إليهم ، فلنأتينهُم بجنود لا قِبَلَ لهمْ بها ، ولنُخرجنَّهم منها أذلةً وهُم صاغرونَ .

وعادَ رسُولُ بُلقْيس إلى بلاده يقصُّ على الملكة ما رآه من عجائب مُلْك سُليمان ، وما شاهدُه من دَلائل عظمته ؛ وَيقرأ عليها رسَالةَ سُليمَان إليها .

وأدركتْ بُلْقيسُ أن سليمانَ نبيٌّ مُرسَلٌ من عند الله ، فقالت لمن حولها : « يا أيها الملأ . . نحن لا طاقةَ لنا به ، ولابُّد لى من مُلاقاته

ومُحَادثته .

وبعد أيام تأهَّبتْ المملكةُ للرحيل إلى الشَّام لملاقاة سُليمان . وتركتْ مُلْكها وعَرشَها العظيم فى حراسة رجال شِداد .

وعَلمَ سليمانُ بمجىء بُلقيس ، فأمر رجاله ببناء قصر مَشيد من زجاج ، وأن فى مدخل القصر بركةً صغيرةً ويملؤنها بالأسماكِ والماءِ ويُغطُّونها بالزجاجِ المتين .

وجَلسَ سُليمانُ يوماً يفكرُ فى أمر هذه المَلكة التى تَعْبدُ هى وقومُها الشَّمسَ من دُون الله ، وتَذكَّرَ وصْفَ الهُدهدَ لعرشها العظيم ، وخَطَرتْ له فكرةٌ . . فقال للملأ من حَوْله :

« يا أيها الملأ . . أيكمُ يأتينى بعرشها قبل ان يأتوننى مسلمين ؟ .

قال عفريتٌ من الجن : أنا آتيكَ به قبل أن تقومَ من مقامكَ . . وإنى عليهِ لقوىٌّ أمين .

وقالَ آخرُ ـ عنده علمٌ من الكتابِ : أنا آتيكَ به يا نبىَّ الله قبل أن يرتدَّ إليك طَرْفُك .

قال سُليمانُ : أحقٌ ما تقول ؟ .

وما هى إلا لحظةٌ ، وكان مُلْكُ بُلقيس مستقراً أمامهُ من ذَهب وياقُوت ، وجَوَاهَر نَفيسة . وكان سَريرُ العَرْشِ من الذَّهبِ الخالصِ ومُطعَّماً بأنذرِ اللآلئ .

قالَ سُليمانُ : نكِّرُوا لها عَرْشَها ، وسَنرَى هلْ سَتَعرفُهُ ، أمْ لا تَعْرفهُ .

ففعلوا ذلكَ ، وأخْفُوا بعضَ مَعَالمه ، وأظْهروا بَعْضَها .

هنالكَ أطرقَ سُليمانُ ، وأغْمضَ عينيه ، وقال خَاشعاً : « هذا من فَضْلِ ربى ليبلُونى أأشكرُ أم أكفرُ . . ومن شكَر فإنما يَشكرُ لنفسه ، ومن كَفَر فإن ربى غنىٌ كريمٌ . » .

وأقبلتْ بُلقيسُ تمشى على استحياء لِما رأتْ من مَظاهرِ الغِنى والجاه ، وكانت حسناءَ رائعةً فى زينتها

واستقبلها سُليمانُ فى رُدهاتِ القَصْرِ ، حتى قادها نبىُ الله إلى حَيثُ كان عَرْشُها .

نظرتْ بُلقيسُ إلى عَرْشِها فى ذُهولٍ ، فسألها سُليمان :

أهكذا عَرْشُك . . ؟!

أطالتْ الملكةُ النَظرَ وهى فى حَيْرةٍ ودَهْشةٍ ، ثم قالتْ : كأنَّهُ هو!! . .

ومشتْ بُلقيسُ بجانب سليمانَ تحُيطها هالةٌ من الجمالِ والجَلالِ . وقادها نبىُّ الله إلى الصَّرْحِ الزُّجاجىِّ العَجيبِ .

وعند الباب أشارَ إليها قائلاً : ادْخُلى الصَّرحَ .

فنظرتْ إلى القَصْر الذى يتلألأُ فى أشعة الشَّمس ويعكسُ الأضواءَ ثُمَّ نظرتْ أمام قَدميها فإذا بأسماك تجرى فى ماء رائق ، فكشفتْ عن ساقَيْها لكى لا يَبْتلَّ طرفُ ثَوبْها ـ وقد حَسبتُه لُجَّةً !

أغضَّ سُليمانُ طَرْفَهُ وقال ضاحكاً : إنه صرحٌ مُمَرَّدٌ من قَواريرَ .

كانت بُلقيسُ فى ذُهول ودَهْشة من عَجائب ما رأتْ، وما سَمعتْ، وكانتْ كأنها فى حُلْمٍ جميلٍ . .

ومكثَتْ بُلقيسُ أياما طيِّبةً فى ضيافة نبىِّ الله سُليمان وأيقنتْ بأنها فى حَضْرة نبّىٍ كريم ، قدَ آتاه الله من المُلْك فوق ما آتاها

وفى لحظَة من لحظات الصَّفاء . .

رفعتْ بُلْقيس عَيْنيها إلى السَّماء ، وقالتْ بقلبٍ خَاشعٍ، وصَوْتٍ وَاهنٍ :

« ربِّ إنى ظَلمتُ نفسى ، وأسْلمتُ مع سُليمانَ لله ربِّ العالمينَ» .

« سيل العرم »

كانت دَولةُ سبأ باليمن ذاتَ حضارة ، وكان أهلُها ذوى مهارة وعَزْم ، فشيَّدُوا القصورَ الشامخةَ ، والجُسورَ القويةَ والسُّدودَ العظيمَة .

وفاضتْ البلادُ بالخيرات والبركات ، وانتشر الخَصْبُ فى رُبُوع الوديان ، وعلى سُفوح الجبال . وطابتْ الحياة وكَثُرَت الأشجارُ ، وتنوعت الثمار . وتقلَّب الناسُ فى أعطاف النعيم حيناً من الزمن حتى جاءهم سيلُ العرم ، فتبدل رَغَد عيشهم ضَنْكاً . .

تعال معى نعرف السبب :

كانتْ البلادُ خاليةً من الأنهار ، وكان الجَدْبُ يكتسحُ تُربتها شُهوراً ذاتَ عدد حتى يأتى القَطْرُ من السماء ، وابلاً مُنْهمراً .

وينحدرُ هذا السيلُ من قمم الجبال ، ويمضى ثائراً يحتملُ الزَبَد ، ويحملُ الطميَ ، ويصبُّ فى الصَّحراء . فتبتلعه الأرضُ ، وتخْضَرُّ مُدةً ، ثم يعودُ الجَدْبُ من جديد .

وفكَّرَ أُولى النُهى وأصحابُ الرأى فى وسيلة للإنتفاع من هذا الوابل الصَيِّب ، فَحَسبوا الأيامَ التى يأتى فيها المطَرُ البلادَ من كل عام وَدَرسُوا طبيعةَ الأرضِ ، وجُغرافيا المكان . فهداهُم اللهُ إلى إنشاءِ

الحواجز والسُّدود . يُقيمونها بين الجبال والوديان ، لحجز السُيول وحفظ المياه . ثم تصريفها إلى الأرض فى قَنَواتَ وتُرع .

وعملوا نظاماً دقيقاً ، وهندسةً للرى رائعةً ، ونجحتْ هذه السُّدود فى الانتفاع من المياه ، فأكثروا منها فى البلاد .

وكان أعظمُ هذه السدود وأمتَنها هو سدٌّ يقع بين جبلين عظيمين ، ويمتدُّ فى نهايته واد فسيح ، ومدينةٌ جميلةٌ وكان يُسمى « سدُّ مأرب »

ونمتْ الزُروعُ بفضل وَفْرة المياه ، وانتشرتْ الحدائقُ ، وتدلَّتْ الثمارُ من أغصانها تكادُ تُلامسُ الأرضَ ، وتُقبِّلُ الثَّرَى .

وكانتْ المرأةُ تسيرُ بين الأشجار تحملُ مكتَلها (قُفَّتها) فوق رأسها فيمتلىءُ ويفيضُ من الثمر المتساقط دُون عَناء .

وفاضَ الخيرُ ، وزادَ النَّعيمُ ، وازدهرتْ الزِّراعةُ واشتغلَ بعضُ الناس بالتجارة . وكانوا يَرْحلون بتجارَتهم إلى بلاد الحجاز والشَّام ويسيرونَ ليالىً وأياماً آمنين . وجعلَ الله لهم فى الطَريق الطوَيل قُرىً ظاهرةً يمرونَ عليها ، فيجدونُ فيها الأمانَ والراحةَ .

كانتْ نعماً سابغةً تستحقُ شُكرَ الله عليها . لكن أهلَ البلد جَحدوا النعمةَ، وبالغوا فى الأَثَرة ونسوا ربهم فأنساهم أنفسَهم ، وقالوا : ربنا باعدْ بين أسفارنا .

وجاء سيلُ العَرِم هائلاً على غير عادته من كُلِّ عام ، فاكتسحَ فى طَريقه كلَّ شَىءٍ ، وقوَّضَت البناء ، وتهدَّمَ السَدُّ العظيمُ . . سدُّ مأرب .

فتدفقتْ المياهُ فى الشِّعَاب واكْتسحَ الفَيَضانُ الحقُولَ ، فَأغْرقَ الزرعَ، وأهْلَكَ الضرعَ . وعمَّ الخرابُ .

وسُرعان ما غاضَتْ المياهُ ، وابتلعتها الرِّمالُ ، وأصبحَ الوادى الخصيبُ مُجْدباً قَفْراً ، لا زَرْعَ فيه إلا الشوكُ ، والأثلُ ، وشىءٌ من سدْر قليل .

وأصابَ النَّاسَ همٌّ وغَمٌّ ، وانتشرَ الفَقْرُ فنزحوا عن الديار ، وتشتتوا فى البلاد بحثاً عن لُقمة العَيْش .

وجَعلهُم الله أحاديثاً سائرةً ، وعِبرةً لغيرهم وكان هذا جزاءَ كُفرهم النِّعمة :

وقال اللهُ فيهم « وهل تُجَازى إلا الكَفُورَ »

أصْحابُ الحديقةِ

تَنَفَّسَ الصُّبحُ ، وغَرَّدتْ الطَّيرُ ، وهَبَّتْ النَّسائمُ اللَّطافُ على الحدائق والحقُول وخَرجَ الشَّيخُ إلى بُسْتانه هَادئاً وَانياً يُردِّدُ فى سرِّه أذكارَ الصَّباحِ ، وَيُقلبُ بَصرهُ فى ملكوتِ اللَه، ويرنُو إلى الأُفقِ بعَينَ شاكرة .

اقتربَ الشَّيخُ من بُستانه ورأى الثِّمارَ اليانعةَ تتلألأُ كالبدورِ فى أشعةِ الشَّمسِ ، والأشجارَ مُحملةً كُلُّها بخيراتٍ وبركاتٍ .

وعندما دَنا الشيخُ من سُور الحديقة تهلَّلَ الناسُ الموجودون ، وأقبلوا إليه يَزفُّونَ ، فحياَّهُم الشيخُ وصَافحهم واحداً واحداً ، وسألهم عن أحوالهم ، وكانوا من الفُقراء والمساكين واليتامى .

كانَ الوقتُ هو مَوْسمُ الحَصاد ، ومَوْعدُ تقسيم الثَّمار وكان الشيخُ الكريمُ يُعطى كلَّ واحدَ من هؤلاءَ نصيبهُ وافراً ، ولهم فَوقَ ذلكَ ما تركهُ الحاصدُ ، وما تَناثَّر من الثمارَ بين الشَّجر .

ورأى أَولادُ الشَّيخ مالَ أبيهم يُوزَّعُ على الفُقراء والمساكين والعَجَزة ، وأن البُستانَ أصبحَ مُسْتباحاً لكلِ مُحتاجٍ وعَاجزٍ وأنهمَ أولادُه لهَم كَغَيرهم من الناسِ نصيبٌ مَعْلومٌ .

وهُنا ضَاقتْ صُدورهم ، وتَمَّردتْ نُفوسهم وأضمروا بُخْلاً وشُحَّاً ، ولكنهم لم يَسْتطيعوُا إظْهارَ ذلكَ .

فلما ماتَ الشيخُ الصَّالحُ ورثَ الأولادُ هذه الحديقةَ واعتنوا بها حتى أثْمرتْ .

وتَشَاوروا فيما بينهم ، فقالوا :

« إن أبانا كان رَجُلا كريماً أكثَر مما ينبغى ، وقد فتَح البابَ على مصْراعيه للفُقراء والمساكينَ ، وهم كثرةٌ . ويأخذون الكَثيرَ .

ولو أَننَّا قُمنا مُبكرينَ وتَسلَّلنا إلى حَديقتنا ، وجَمَعنا ثمارها قبلَ أن يَصحُو هؤلاء الفُقراء ويَجيئُون لفَوَّتَنا عليهم الفُرصةَ ولَمَا عادُوا بعدها يسألونَ عنَ نصيبَهمُ فى الثِّمار .

وأجَمْعوا أمْرهم على هذا الرَّأى ، إلاَّ أخٌ لهم ، شَعُرَ بأنَّ هذه

المؤامرةَ على حَقِّ الفُقراء هى خسَّةٌ ونَذَالةٌ وردَّةٌ عن مَنهج أبيهم الصَّالح ولن تكونَ عاقبتُها خَيْراً .

فاللهُ يُبارِكُ فى الحديقة ، وكلٌّ منا يكفيه رِزْقهُ منها ، فلِمَ يحرمونَ الفُقراءَ نصيبهمَ .

واعترضَ الأخُ الطَّيبُ على هذه المؤامرة .

ولكن لم يؤثِّر فيهم اعتراضَ أخيهم ، بل أقسموا لَيَقْطعون ثمارهَا فى الصَّباح الباكر ، ولا يَسْتثنونَ منها شجرةً . وباتُوا على هذه النِّية وهذا المكْر السَّيء .

ولكنَّ اللهَ خيَّبَ تدبيرهُم ، فأرسلَ على الحديقة غَضَبهُ ، وطَافَ عليها طائفٌ من ربكَ وهم نائمونَ . فأصبحتْ الحَديقةُ كالصَّريمِ وخاليةً منَ ثمارها ، جَرْداءَ سَوداءَ كالليلِ المُظْلم .

وفى عَتْمة اللَّيلِ عند السَّحَرِ تَنَادى الأُخوة على بعضهم أن اغْدُوا على حَرْثكم إنَ كنتُمَ صَارمين .

فانطلقُوا من بيُوتهم وهُم يتهامسون ويتَخَافتونَ حتى لا يَسْمعهم أحدٌ .

وقالوا فى فَرْحة : لنْ يدخلها اليومَ عليكمُ مسْكينٌ .

وسَاروا فى طريقهم إلى الحديقة ، وعندما وَصَلُوا إليها طَاشَتْ عُقُولهم وارتابوا ، وقالوا لبعَضهم : لَابُدَّ أننا ضَلَلْنا الطريقَ . فما تلك

الحديقةُ حديقتنُا التى تركناها بالأمْسِ .

وتلفَّتُوا حَوْلهم ، كانت المعَالمُ تؤكدُ أن هذا المكانَ هو الذى فيه حَديقتهُم .

وطَافُوا بالمكان ينظرونَ بدْهشة ويتسَاءلون فى حَيْرة : ما هذا الذى حَدثَ ؟! . . إننا كنا هنا بالأمسِ وكانتْ الأشجارُ نَاضرةً والثمارُ ناضجةً . .

أبَينَ عَشية وضُحاها ينقلبُ الأمرُ ويتبدَّلُ الحَالُ ؟!

ومن بين فَجيعتهم وحيرتهم لاحَتْ تباشيرُ الفَجرِ ، وسَبَّحتْ جُموعُ الطيرِ ، وأقبلَ الفُقراءُ والمساكينُ .

هُنالكَ أدْركَ الأُخوةُ حقيقةَ الفَاجعةِ . . إنه حُرمانٌ من الله جَزَاء حِرمانهم هؤلاء الفقراءِ .

وخارتْ قوَاهُم ، وفقدوا أعْصابَهم ، وراحُوا يتلاَومُون . .

قال أحدهُم للآخر : أنتَ السَّببُ فى هذا البلاء .

ويَرُدُّ عليه الأولُ : بَلْ أنتَ صاحبُ الفكرة المشؤمة .

وخرجَ أخُوهم الأكبرُ عن صَمْته وقالَ : ألَمْ أقلْ لكمُ لولا تسبُحونَ الله تعالى وتشكرونَ نعَمهُ ، وتَنوون خيراً ، وألا تمنعُوا سُنَّةً حَسنةً سَنَّها أبُوكم الصَّالحُ ؟! .

قالوا : سُبْحانَ ربِّنا . . إنَّا كُنَّا ظَالمينَ .

« عُزَيرُ وحِمارُه »

كان عُزَيْرُ رَجُلاً مُؤْمناً صَالحاً ، وكان مُسْتجابَ الدَّعوة، وذاتَ يَوْم، بينما كانَ عائداً من بُسْتانه حَاملاً طَعَامَهُ وشَرابهُ ، راكباً حَمارهُ ، إذ به يَمُرُّ على بَيْت المقَدس بعدَ أن خَرَّبها الطُّغاةُ وأبادُوا أهْلها وَديارهَا أعزَّةَ أهْلها أذلَّةً ، كانت القَريةُ صامتةً ساكنةً بعد أن كانتْ منَ قبلُ عامرةً بالنَاسِ ، تَدُب فيها الحياةُ .

نَظرَ عُزَيرُ فرأى قُبوراً مُنْتشرةً هُنا وهُناكَ ، وأطْلالاً سكَنتها العُقْبانُ والبُومُ، فقال فى لَفْحة الهجَير :

ـ كَيفَ يُحْيِ اللهُ هذه القريةَ بعد مَوْتها ؟

وخَزَّ فى نَفْسه هذا الخرابُ وذاكَ الدَّمارُ ، وتلفت فى المكان باحثاً عن ظلٍّ ظليل .

نزلَ عُزَيرُ عن حماره ثم جَلسَ إلى دار خَربة يَنْشُد الرَّاحةَ ويفكرُ فى الأمر وراحَ يسألُ نَفسَهُ :

هذه الأجسامُ التى أكلتها الأرضُ كيفَ يَبْعثُ الله أهلها بعد أن صاروا أجساماً باليةً وعظاماً نَخرةً ؟! . .

وأجْهدهُ التفكيرُ وأصابهُ الإعياءُ فأسندَ رأسَهُ إلى الجدارِ فى لحظة

استرخاء وراح فى إغْفاءة .

ونامَ عُزيرُ . . بل أماتَهُ الله مائة عامٍ .

وتعاقبتْ السُّنونُ ، وتَبَدَّلت الأرضُ غيرَ الأرْضِ ، ومات أُناسٌ وجَاءَ أُناسٌ ، وبعد مائة عامٍ بعثهُ اللهُ .

نَهضَ عُزيرُ من رَقْدته ، وأخَذَ يَفْركُ عَيْنهُ وينظرُ حَوْلهُ ويُنفض ثيابهُ ، وفى تلكَ اللحظة مَرَّ به مَلَكٌ فى هَيْئة رجلٍ كَريمٍ فسألهُ عُزَير : كمْ لبثتَ نائماً ؟

وعندما نظرَ عُزَيرُ إلى الشَّمس تذكَّرَ أنه كان يُفكرُ فى شأن هذه القرية عند الضُّحى ، وهو الآنَ وقتَ الأصيلِ ، فقالَ : لابد أننى لَبِثتُ يوماً أَو بعضَ يَومٍ .

قال له الرَّجلُ ـ وهو مَلَكٌ : بل لَبثتَ مائة عامٍ .

وتعجَّبَ عُزيرُ من كلام الرجلِ وسألَ فى دَهْشَة : كَيفَ ؟

كيفَ أيها الرَّجلُ الكريمُ ؟

قالَ الرجلُ ـ وهو يُشيرُ إلى سلَّة الطَّعام التى كانت بجانبه : انظُر إلى طعامكَ وشَرابكَ لم يتغيرْ ، وانظَر هناكَ إلى حمارك .

نَظَر عُزيرُ إلى طعامه وشَرابه فوجدهُ كما تركَهُ ، ولكنه عندما نَظَر إلى حماره . . لم يجدَ حِمارهُ . بل وَجَد هنُاكَ عِظاماً نَخرةً وبقايا مُنْتشرةً .

إرْتاعَ عُزَيرُ وتعجَّب وعَقَدتْ لَسانَهُ الدَّهْشةُ .

قالَ الرجلُ : ثُمَّ انظر إلى العظام البالية كيف يُعيدها اللهُ سليمةً كما كانتْ، ثم يكْسُوها لحماً .

ونظرَ عُزَيرُ فإذا العظامُ النَّخرة تتجمعُ مع بعضها وتَتَركَّبُ وتَصيرُ هَيكلاً لحمار صحيح ، ثَم يكسوهَا اللهُ اللَّحمَ ، وما هى إلا لحظةٌ حتى كان الحمارُ يَقِفُ أمامَ عُزير كما تركهُ بالأمس البعيد .

هَتَفَ عُزَيْر من أعماقهِ وكُلُّه إيمانٌ ويقينٌ :

« أعْلمُ أن الله على كَلَ شيء قدير وأن اللهَ قد أحاطَ بكل شيء علماً ، ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها إن ربى على صِراطٍ مُستقيمٍ ، وأعلم أنه يُحى ويُميتُ .

ركبَ عُزَيرُ حمارهُ وسَارَ فى طريقه إلى المدينة وطرَقَ باب بَيْته الذى أصابَهُ البَلَى وبانتْ منه العِظامُ ، وعندما فُتحَ الباب أنكرهُ من كانَ هُناكَ .

وَجَد عُزَيرُ أولادهُ وأحفادَهُ قد شَاخُوا وهَرِمُوا . وتَركَ حمارهُ وسألهم : أليستْ هَذه دارَ عُزَير ؟

قالتْ عَجوزٌ : بَلَى . . مَنْ أنتَ ؟ ولمَ تسألُ عن عُزَير والله ما سألنا عنهُ أحدٌ مُنذُ زَمن ، إنه ذَهبَ مُنذُ مائَةَ عامٍ، ولم يَعُدْ ، وَلا نعرفُ عنه الآن شَيْئاً ، ولعلَّهُ مَاتَ .

قالَ عُزيزُ : أنا عُزيزُ . . أماتَنى الله مائةَ عَام ثم بعثنى وتعجبتْ العَجوزُ ، وتعجبتَ الأولادُ ، ودَخلَ الدَّارَ وَسْطَ دهْشةِ الأهلِ

وحيرتهم .

وعندما جلسَ عُزيزُ على مقْعد قديم ، راحَ الأولادُ يسألوهُ عن هذه المُدة . وهو يُخبرهم بقصة مَوْتَه ثم بَعثَه ، وَحدَّثهم حَديثاً عُمْره مائةَ عامٍ . وأسمعهم بَعْضاً من التوراة وما كان يحفُظها آنئذ غَيْرهُ .

ودلَّهم على أسرار كان لا يعرفها إلا آلُ بيته ، ومعالمَ كانت فى دارهم لا يعرفها من النَّاسِ غيرهُ . فصدقوهُ .

وآمنوا ببَعْثه بعد مَوْته . وآمنوا بقُدرة الله على إحياء الخلائق ، وأنهُ سُبحانه يَبْعثُ المَوتَى .

وخرجَ عُزيرُ إلى النَّاس يَقُصُّ عليهم حكايتَهُ ، وما كان من أمْرِ حماره وطَعامه ، والنَّاسُ فى ذُهول .

وكَان منَ بَين الناسِ شُيوخٌ يعرفون عُزَيرَ يومَ فقدوهُ ، فعرفوهُ وصَدَّقوهُ ، وآمنوا ببعثه بعد مَوْته وآمنَ النَّاسُ بأن الله يُحْىِ المَوْتَى ، وأنه على كُلِ شَىءٍ قدَيرٌ » .

أصحاب الكهف

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾

وَقف الفَتىَ فى ركن قَصىٍّ[1] ساهماً حائراً مُرتَاباً ، يَتأملُ ما يَعملهُ قَومُه ، ويُفكّرُ فى حَالهم ، وَيَتَساءلُ فَى حَسَرة ودَهْشة :

« هــل حقــاً تلكَ التماثيلُ والأصنــامُ الجاثمــةُ فى المعَبدِ آلهةً » ؟! . .

« هل يَعنى ذلكَ أنها صاحِبةُ هذا الكَونِ ، وصانعةُ هذه الخلائق؟! . .

« كَيف ؟ . . كَيف ؟!

ثم تبسَّمَ سَاخراً وهو ينظرُ إلى صَنمٍ ، واستطَردَ :

« أهذا الصّنمُ القبيحُ الذى يسجدون لـه ـ أمام ناظرىَّ[2] ـ إلهٌ يتصرفُ فى أُمور النّاس ، وفى أحوال الكَون كما يَشاءُ ؟! ألهذا هُم يركعونَ له خائفينَ ويسألونه ضارعينَ أن يمَنحهم الصحةَ والعافيةَ والغنَى . . ؟!

أيَعقلُ هؤلاء القَومُ . . أمْ أنّ على أبصارهم غشَاوةً ، وعلــى عقولهــم صَدأً ، ثم خَرج يمشى وَانياً[3] يَشُقُ طَريقه وَسطَ الجُموع

---

(١) بعيد .
(٢) عينىّ
(٣) بطيئاً .

المُحتشدة داخل المعبد ، وخارجهُ كأنّهمُ قُطعانُ الماشية الضالة .

كان القَومُ فى مدينة « أفُسوسُ » يحتفلونَ فى هذا اليَوم بعيدهم المَجيد ، وقد أتَوا إلى المعبدِ من كُل مكانٍ بعيد ليتقربوا إلى أصنامهم وأوثانهم .

خرج الفتى الحائرُ من هذا الضَّجيج ، ومن بين هَؤلاء الرُّعاع[1] إلى الطَّريق المؤدى إلى الوادى يَلتمسُ الهُدوءَ والرّاحةَ ، ويُفكرُبهدوء فيما يعتقده قومهُ ، ويقلبُ نظرهُ فى السماء والأرض . وفى الطريقَ التقى الفتى الحائر صديقاً له فصافحهُ، وعانقهُ ثم سألهُ بَدَهشة :

ـ ما الذى أخْرجكَ يا صَديقى فى هذه السَّاعة ، وجعَلكَ تفارقُ القَومَ ، وتتركَ الاحتفالَ بالعيد ؟

فقالَ الفتى الثانى : أخَرْجنى يا صَديقى ـ والحقَّ أقُولُ لكَ ـ همٌّ ثقيلٌ ، وحيرةٌ . . وتفكيرٌ .

فقال الأولُ : كيف ؟! . . كيفَ يا صَديقى ؟!

قال الثانى : رأيتُ النّاسَ كأنّ عُقولهم مُعطّلةٌ ، وقُلوبهم خَاويةٌ ، وأفئدتُهم هواءٌ ! . . يركَعُونَ لأصنام صُنعتْ من حَجَر ، وأوثان نُحتت من صَخْرٍ ويتخذونها آلهةً ؟! ، ألا يَعْلمونَ أنها حجارةٌ لا تضُر ولا تنفعُ ؟!

قال الفتى الأول ـ وقد انشرحَ صدرُه لكلام صَديقه : حَسَناً . .

---

(١) السوقة من الناس .

والله ما أخْرَجنى فى هذه السَّاعة إلى هذا الطريق النَّائى إلا ما أخرجكَ وما وَجدتُ فى نفسى إلا مثلُ الذَى وجدتهُ أنتَ فَى نفسكَ .

وقد قلّبتُ فكرى فيما يعتقده قومى ، ونَظَرتُ في الكَون العظيم ، ونظامه البديعِ ، فأدركتُ أن هؤلاء الرِعاع فى وهمٍ كبيرٍ ، وضلَالٍ مُبينٍ .

قال الفتى الثانى للأول ـ وهُما يمشيان :

« انظُرْ معى إلى هذه الجبال وكيف رُفعتْ ، وإلى الأرض وكيف سُطحتْ . . انظر إلى هذه الزُروع ، بل انظر إلى السَماء . . انظر يا صدَيقى إلى رَوْعة الشمس . . مؤكدٌ هذا خَلْقُ الله ، وصُنْعُ الله .

يا صديقى إننى الآن أشعرُ بهيبةٍ وخَشيةٍ ، وأُحِسُّ برعشةٍ فى بدنى لجلال الله . .

إن خالقَ هذا الكون العظيم هو اللهُ ، وهو فى السَّماء ، عقلى يقولُ ذلكَ ، بل كيانى كلّه يؤكدُ ذَلكَ . .

وأنتَ يا صَديقى ألا تعتَقدُ هذا ؟

قال الفتى الأولُ : تماماً ! . . أعتقدُ بأنّ الله أكبرُ وأعظمُ مما يزْعُم هؤلاء الواهمونَ !

ثم قَالَ الفَتى الثَّانى : هيّا بنا أُعرفكَ على صديق لى كان يُحدثنى منذ أيام بمثل الذى حدثنى به ، وهو يعتقدُ بأن اللهَ خالقُ هذا الكون فى السماء يرانا ولا نراهُ ، وهو الذى يخلقُ ويرزقُ ، وهو الذى بيده

ملكوتُ كلّ شيء . . » هيّا . . هيّا .

التقى الفتيانُ الثلاثة بعد أن انضم إليهم فَتيان مُؤمنان فى حُجرة صَغيرة بدار أحدهم ، وراحُوا يتماورونَ ، ويتفكرون ويقولَون :

﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ من دُونه إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا من دُونه آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

واتفقوا على أن يجعلوا من هذه الحُجرة مَوْئلاً[1] لهم ، وقاعةً لاجتماعهم ، وصَلاتهم ، بعيداً عن أعين القومِ . . وقالوا :

« الحمدُ لله الذى هَدانا لهذا ، وما كُنا لنتهدىَ لَولا أن هَدانا اللهُ . . . » .

واستراحَتْ نُفُوسُهم لهذا الدِّين الجَديد . . ذلك الدينُ الذى هداهُم إليه خالقُ الكَونِ وخالقُ الناسِ ، وكانَ الفتيةُ لا يُشْركونَ مع الله أحداً .

وفى إحدى المرات التى اجْتَمعُوا فيها للتفكُرِ والعبادة ، قال أحدُ الفتْيةُ لرفاقه :

« لقد سمعتُ يا رفاقُ من هَمْسِ الناسِ خبراً خَطيراً ، لو صَحَّ لكان فتنةً لنا ، وإفساداً لديننا » .

فصاحوا فى وَجَلٍ وخوفٍ : خيراً . . ماذا سمعتَ ؟ .

---

(١) حصناً .

قال : سَمعتُ أن الملك الطَّاغيةَ « دقيانَوسُ » قد عَلمَ بأمرنا ، فثَار وهَاجَ ، وتوعّدنا شَراً إن نحنُ لم نرجع عن ديننا ، وأصْدَر أمراً بإحضارنا إليه ، فلنتدبر يا رفاقُ الأمرَ ، ولنتشاورُ الرَأيَ . .

فتحاورَ الفتيانُ وتَشَاوروا ، وأخيراً اتفقُوا على أن يثبتوا على دينهم الجَديدُ ، وأن يتمسكوا بعقيدتهم الواضحة ، وأن يَصمُدوا في مُواجهة المَلك وأعوانه .

وفى جُنْحِ الظَلام[1] خرجَ أعوانُ المَلك لا نتزاع الفتية من منازلهم ، ومن بين أهليهم ، وأحضروهُمُ أمامَ الملك « دقيانوسُ » .

صَاحَ الملكُ ساخراً مُستَهزئاً : أنتم إذاً الفتيةُ الذين وَصَلنى نبأكُمُ وانتهى إلىَّ خَبَرُ دينكمُ ؟! . .

« أىُّ دين هذا الذى تَدينون به أيّها الصِّغارُ ؟! . . ولماذا تركتُم دينَ آبائكمُ وأجدادكُم . . دينُ الملكَ والرّعية؟!

أخبرونى كيف هَبطَ عليكم هذا الوَهمُ الذى تحسبُونهُ ديناً قَويماً[2] ؟!

كان الملكُ يَهدرُ كالسّيل الجارف بصوته الثائر ، والفتيةُ أمامَهُ يَرْجُفون من الخوف ويسألون الله فَى سرهَمُ الهَداية والثباتَ ، والنجاةَ من شرِّ هذا الطَاغية .

ثم قال الملكُ ـ بعد أن انْحَسَر هياجُه : اسمعوا . . انكم كما أرى

---

(١) جزء من الليل .

(٢) سليماً مستقيماً .

فتيةٌ صغارٌ ، ولا شَكّ أن بكم طيشٌ ونَزَقٌ وأمامكم مستقبلٌ زاهرٌ لا أريدكم أن تُضيعوهُ بأنفسكُم ، أو تُحطموهُ بأيديكم ، وبهذا السُّخْف الذى تَعْتقدونهُ .

إننى أعلمُ ـ أيها الحَمْقَى ـ أنكمُ من أكابر القومِ ومن أشراف النّاس وأخشَى أن يُفْتَن الناسُ بكم ـ لو علموا بدينَكم . . لهذا لن أُعَاقبكُمَ الآنَ . . وسأمنحكُم فُرْصةً أخيرةً تُراجعون فيها أنفسكُم . فإمَا أن ترجعُوا عن دينكم ، وإلا فالقتلُ على مرأى ومَسْمعٍ من أهلِ المدينةِ .

اذهبوا الآنَ . . ولقائى مَعْكُم يكونُ غداً .

وخَلَصُوا نَجيّاً . . وقالَ بعضُهُم : هذا الطاَّغيةُ يتوعَّدنُا بشرِّهِ ليلفتنا عن ديننا . . لا ضَيرَ . . إنّا إلى ربنا لمنقلبون » .

وقال آخُر : كلاّ . . لن نُمكنهُ من أنفُسنا .

وقال ثالثٌ : لم يَعُدْ لنا مُقامٌ فى هذا البلد أيها الرِّفاقُ ، فلنفر بديننا ونُهاجرَ . . وأرضُ الله واسعةٌ .

وقال رابعُ : لابد أنّ من يُهاجرَ فى سبيلِ الله يَجدْ فى الأرضِ مُراغماً كثيراً وسَعَةً ، فلنرحل إذاً .

وأجْمعُوا أمرهم على الرّحيل فِراراً بدينهم من الفتنة .

وبسُرعة أعدُّوا زاداً يَسيراً ، وتسلَّلوا لواذاً [1] إلى الصحراء وفى الطريقَ لمحَهم كلبٌ ، فسار فى إثْرِهم ، فَزجروهُ ليرجعَ حتى لاَ يدلّ

---

(١) متخفين .

القوم عليهم بنباحه وصياحه، لكن الكَلْبَ لم يَنْزجر ولم يَرْجِع ، وتعلَّقَ بهم فمضُوا فَىَ طريَقهم يتبعهمُ كَلبهم .

ابتعدَ الفتْيةُ عن المدينة كثيراً ، وابتلعتهم الصَّحراءُ الواسعةُ ، وفى الطريق لاَحَ[1] لهم غارٌ كأنه كهفٌ فى بطن جبل . فرأوا أن يدخلوهُ ليستريحوا قليلاً من وَعْثاء[2] الطريق ، وجلسواً يفترشون الأرضَ ، ويتناولونَ طعامهم بينما أقَعَى الكلبُ على باب الكَهْف كأنه حارسٌ ، وألقوا إليه لُقَيمات فأكلها بنهمٍ ، ثم هَزّ ذيلهُ شاكراً .

واضْطَجعَ الفتيةُ ليُريحوا أجسامهمُ المُتعبة ، قبل أن يواصلوا المسيرَ ، لكنهم أحَسّوا إغفاءةً خفيفة كأنها الكَرَىَ[3] ثم راحُوا بعدها فى نومٍ عميقٍ .

وأقبلَ المساءُ والفتيةُ نائمونَ ، وكلبهم رَابضٌ على باب الكهف ، ومضى الليلُ ثم لاحَ الصباحُ والفتيةُ لا يزالون نياماً ! . . والكلبُ رابضٌ فى مكانه .

ومضى عامٌ إثر عامٍ والفتية راقدون ، يقلبهمُ ربُهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمال . . وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوَصيد[4] !

تسع وثلاثمائة سنة مَضَتْ عليهم وهم على هذا الحال ثمَّ انتبهوا وقاموا يفركون عُيونَهم .

فقال أحدُهُم : كمْ لبثتم[5] ؟

---

(١) ظهر .
(٢) مشقة
(٣) النُعاس .
(٤) بالباب .
(٥) مكثتم .

وقال آخرُ : أظنُ أننا لبثنا يوماً نائمينَ .

وقال ثالثٌ : لا . . بلْ لبِثْنا بعضَ يومٍ . . وها هى الشمسُ تميلُ إلى الغُروب .

وقال رابعٌ : دَعُونا من هذا الآن . . سَواءٌ علينا ألبثنا يُوْماً أو بعض يوم ! . .

إننى أُحسُّ جُوعاً شديداً ، فابعثُوا أحدكُم إلى المدينةِ فليأتنا بطعامٍ طيبٍ ، وليتلَطَّفْ ، ولا يُشْعرنّ بكم أحداً .

إنهم لو عرفوا مكاننا ، فَسيرجُمونا ، أو يُعيدونَنا قَسْراً [1] إلى ملتهم بعد إذ نجانا اللهُ منها .

فخرجَ فتىً منهم يلتمسُ طعاماً لرفاقه . . ودَخَل المدينةَ مُتخفياً حَذراً ، ولكنه لم يكدْ يخطُو خُطُواتٍ حَتى وَقفَ يَتَلفتُ حوله فى دهشَةٍ وذُهُول .

ثم مشى حائراً مُضطرباً ، يتلفتُ كثيراً ويتعجبُ من أمر الدُّنيا . . فهذه الخرائبُ التى كان يراها أضْحَتْ [2] قُصوراً ، وتلك القُصورُ كانت بالأمس خرائبَ ، حتى الطُرقات تغيرتْ معالمها ، كُلُّ شىءٍ حوله غريبٌ . . وتساءلَ :

أتكون هذه مدينة « أفُسُوس » أم أننى تُهتُ وضَللتُ طريقى ؟! وبينما الفتى علي هذا الحال يسيرُ ، وقد لَفَتَ انتباه النَّاس بحيرته

---

(١) قهراً . (٢) أصبحت .

واضْطرا به ، وقَديمِ ثيابِه ، إذا بأحدِ المارّة يسألهُ : أغريبٌ أنت عن هذا البلدَ ؟

قال الفتى : لا .

قال الرجلُ : إذاً فعلامَ تبحثُ . . ولماذا تتلفتُ ؟!

قال الفتى : أبحثُ عن السُوقِ لأشترى طعاماً ، وأشار إليه الرجلُ على بائعِ طعامٍ .

وقَف الفتى صَاحبُ الكهف يشترى طعاماً ذَكياً طيباً ، ثُم أخرجَ دَراهمهُ ونَقَدها التاجرَ . فارتاعَ البائع لرؤية النقود التى عَفا [1] عليها الزمانُ ، ومضى عليها أكثرُ من ثلاثمائة سَنة ، ثَم سأل الفتى : من أيـن أتيت بهذه النقـود ؟

فقال الفتى : إنها نُقُودى . . عَملتُ مُنذ يومين عند رَجُلٍ ونَقدنى إيّاها فى مُقابل تعبى .

كان كلامُ الفتى وهيأتُهُ تُوحيان بأنه لا يكذبُ . . لكن التَاجرَ عاد يسأله : « لكن يا بُنى . . هذه نُقودٌ قديمةٌ ، هذه الدراهمُ مَضروبٌ عليها صورةُ الملك « دقيانوس » وهـو حَسْب ظَنى كـان يَحكُمُ هذه المدينةَ منذُ ثلاثة قُرُونَ ! .

وبَدَتْ على وجه الفتى حَيْرةٌ ودَهْشةٌ ، وتَلفتَ حَوله فى ذُهولٍ . ثم تساءل : أمعقولٌ هَذا الكلام ؟!

---

(١) مضى .

ولما رأى بعضَ الناس تَلْتفُ حَوْلهُ ، وتجتمعُ عليه تركَ الطَعام ، وهَمَّ [1] بالانْصرافِ خَشيةَ أن يفتضح أمرهُ ، أو يعلم أعوانُ الملكِ بمكانه .

لكنّ الناسَ أمسكوا بيده وقالوا : لا تَخَفْ ، أخبرنا عن مكان الكَنزِ الذى عثُرتَ فيه على هذه النقودِ القديمة .

فصاحَ الفتى فيهم : أىّ كَنْز أيهَّا البَشَر ؟! قُلتُ لكم هذه نقُودى ، دَعُونى أذهبْ . . لا أُريدُ منكم شيئاً .

ولم يَزلْ به النّاسُ حتى قصّ عليهم قِصتهُ هو ورِفاقُه الهاربين من بطشِ [2] الملكِ « دقيانوس » .

وهنا صاحَ رجلٌ : « دقيانوس » ؟! . . ياه ، هذا ملكٌ ماتَ منذُ ثلاثمائة سنة ، إذاً أنتم الفتيةُ الذين حكى عنهم الأجدادُ من أنهم فرُّوا بدينهم من بطشِ الملكَ الجائرِ الكافرِ « دقيانوس » ؟!

وقال أحَدُهم : لا تَخفْ يا فتى . . إن الملك الذى تخافهُ قد ماتَ منذُ ثلاثمُائة سَنة ، وأنّ الملك الذى يحكمُ المدينةَ الآن رجلٌ مُؤمنٌ بالله كما تُؤمنونَ ، ثم ربَّتَ [3] على كتفه برفقٍ . .

قائلاً : وأين بقيةُ صَحبكَ ؟

---

(١) عَزمَ على .
(٢) ظلم .
(٣) ضرب بخفة ورقة .

وانتبهَ الفَتى صاحبُ الكهف إلى حقيقة حَاله وحال رفاقه ، وعَلِمَ أن الله ضَرب على آذانهم فناموا في الكهفَ هذه السنين الطِّوَال .

وقال لهم : دَعُونى أذهبُ الآن لصَحْبى ، لأنهم فى الكَهْف الآنَ ينتظرون مَجيئى بالطعامِ لهُم .

وعَلِمَ الملكُ بأمرِ الفتية ، فَسَعى إليهم ، وذهبَ إلى كهَفهم ، فصافَحُهم وعانقهم ، ودعاهم إلى قصره للإقامة معهُ ، ورآهم أهْلاً للإكرامِ والرِّعاية .

لكنهم قالوا لهُ : نشكركَ أيها الملكُ الكريمُ . . وما نَبْغي [1] بالحياة فى قصركَ ونحنُ الآن غُرباءُ ؟!

وتَوجّهَ الفتيةُ إلى ربهم سائلينَ أن يَشْمَلُهمُ برعايته وجِوارِه . ثُمّ ناموا .

وفى الصَّباحِ علمَ أهلُ المدينةِ أن الفِتْيةَ قد توفاهُم الله . ووقفَ القومُ عند الكهفِ يقولون :

« لعلَّ الله أعثَرنا عليهم لنعلمَ أن وَعْدَ الله حقٌ ، وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها ، وأن الله يبعثُ من في القُبور . .

وتنازعوا أمرهم بينهم فقالوا : ابنوا عليهم بُنياناً ربُّهم أعلمُ بهم ، قالَ الذين غَلبُوا على أمرِهم : لَنتَّخِذَنّ عليهم مسجداً . . .

---

(١) نريد .

أصحاب الأخدود

كـانَ ذُو نُوَاس مَلكٌ قَـوىٌّ ، له مُلْكٌ عَظيمٌ ، وكـان له سَاحـرٌ يَستشيرهُ فى بَعْضَ أمُوره ، وَيَجْعلُ له مكَاناً فَى مَجْلسـه ، ولما كَبُرَ السَّاحرُ وَهَرِمَ ولم يَعُدْ يَقْوَ على المَجىءِ إليه .

قـالَ للملك : أيُّهـا الملكُ الكَرِيمُ . . إننى كَمـا ترى كَبـرتُ ووهَنَ العَظْمُ منى ، واشْتَعَلَ الرأس شَيْباً ، وأرىَ أنْ تَبْعثَ لى غُلاَماً أعَلِّمَهُ السِّحرَ .

فَبعثَ المَلكُ إليه غُلاماً لكى يُعلمُه السِّحْرَ .

كانَ الغُلامُ ذَكياً نَشيطاً يَعْشَقُ المَعرفةَ ويُحبُ العلْمَ ، وكَانَ يأتى إلى السَّاحر من أقصى المَدينة ماشياً . وكانَ فى طَريقه إلى السَّاحر يَمُرُّ بصَوْمَعة صَغيرة ، كَانَتْ تُحيطُها بَعْضُ الأشْجار وَالزُّرُوع .

وكانَ الغُلامُ يَرىَ فيها أحْياناً شَيْخاً نَحيفاً يَسْقى زَرْعَهُ ، أو يُطْعمُ شَاتَهُ ، أو يَسيرُ بين الأشْجار وانياً سَاهماً مُتأمِّلاً وَيداهُ مَعْقُودتان وراءَ ظَهْره .

كَانَتْ رُؤْيةُ هذا الشَّيخ الغَريب تأسرُ قَلبْه ، وتُرغِّبهُ فى الحَديث إليه ، أو الجُلوسِ بَيْنَ يَديه ، لِذَا كَانَ الغُلامُ يُبْطئُ من سَيْره عندمَا

يَقْتربُ من تلْكَ الصَّوْمعة (الكُوخِ) ، وكَانَتْ مَلامِحُ الشَّيخِ تَشِي بالرِّقَّة والسَّمَاحَة والطِّيبة .

وذاتَ يَوْم ، بينما كانَ الغُلامُ سائراً فى طَريقه إلى السَّاحر ، نَظَر إلى الكُوخ فَرأى الشَّيخَ جَالساً فى خُشُوع مُسْنَداً رَأسْهُ إلى الجدار ، فقالَ فى نَفْسه ، إننى أشْتَاقُ إلى سَماع هَذا الشَّيخ الصَّامت .

وَقَفَ الغُلامُ على بَاب الحَديقة ونَادَى : عِمْ صَباحاً أيها الشَّيخُ ، هَل نَجدُ عنْدكَ مَاءً ؟

التفتَ إليه الشَّيخُ وقالَ : حَيَّاكَ اللهُ يا فَتَى ، مَرْحَباً بِكَ . . نَعمَ عنْدنا ماءٌ كَثيرٌ ، ادخُلْ ـ تَفَضَّلْ . .

دخَلَ الغُلامُ وهو يَشْعُر بسعادَة وراحَة ، ولَقيهُ الشَّيخُ بَوجه باسِم وناولَهُ قَدَحاً به ماء ؛ فشربَ .

قال الغُلامُ : هل تَأذَن لى فى الجُلوس مَعَك قَليلاً ؟

رَدَّ الشَّيخُ : نَعم . . أهْلاً بكَ .

وجَلَس الغُلامُ تَحْتَ شَجرة ، بينما قَامَ الشَّيخُ واتَّجهَ نحو كَرْمة مُثْمرة وأتَى بعنقُود عنب ، ثُمَّ غَسَلهُ ، وقَدَّمُه للغُلام .

شَكَرَ الغُلامُ الشَّيخَ وَرَاحَ يأكُلُ ويَسْمعُ .

قالَ الشَّيخُ : هَلْ تَسْكُنُ قَريباً من هَذا الطَّريق ؟

قَالَ الغُلامُ : كلاَّ . . إننى أسْكُنُ فى أقْصَى المَدينة ، لكَننى أمُرُّ كُلَّ صَباحٍ من هَذا الطَّريق .

جَاءتْ عَنْزةٌ بيضاءَ يتبعُها صَغيراها ، وجَلسَا بين يَدَى الشَّيخِ ، وأخذَا يَتمسَّحان فى ثَوْبه ، وهو يُربِّتُ عليها برفق ويُقَبِّلُ بَين عَيْنيها .

نَظَرتْ العَنزةُ الصَّغيرةُ إلى الشَّيخِ كأنها طفل رضيع وراحَتْ تَثْغُو ثُغَاءً شَجياً .

قالَ الشَيخُ : هذه الشِّياهُ تُحبُ مُلاَعبتى ، لا عَليكَ يا فتى . . كُنْتَ تَقُولُ شَيْئاً . . تكلَّم . . اننى أصْغى إليكَ .

الغُلامُ : إننى أذهبُ كُلَّ يَوْم إلى شَيْخ كَبير من جُلساء الملك ، يُعلمنى مما تعلَّمَ . ومَنْزلُه يقعُ فى آخر هذا الطَّريق .

الشيخُ : وَهَلْ تَعلمتَ منهُ شَيْئاً ؟ .

الغُلامُ : حَدَّثنى عن الأبْراج والنُجوم ، ووعَدنى أن يُعلمنى الكثيرَ عن أسْرَارها ، وعن علاقتها بحياة البَشَر .

الشَّيخُ : لا بَأسَ . . استمع إليه ، وتَعلَّم منه ، وفى العَوْدة مُرَّ علَّى لكى أزيدكَ عنها معرفة وعلْماً .

الغُلامُ : وهَلْ تَعْلمُ شَيْئاً عنها أنْتَ أيْضاً ؟

الشيخُ : نعم يا بُنى . . قَدْراً يَسيراً مما علَمنى ربِّى .

الغُلامُ : ومَن ربُّكَ ؟

الشَيخُ : ربى وربُّكَ ورَبُّ كُلِّ النَّاس ، وكُلِّ الكَون هو اللهُ .

الغُلامُ بدهشة : اللهُ ؟! . . هذا كلامٌ غَريبٌ ، وأينَ اللهُ يا أبَت ؟

الشَّيخُ : اللهُ يا بُنىَّ فى السَّماء ، وهو يَرانَا ونحنُ لا نَراهُ إنه هو

الذى خَلَقنا ، وخلَق كُلَّ النَاس ، وهو الذى يَرْزقُنا ، ويُصَـــرفُ أمورَنا ، ويَهدينا فى البَحر إذا تُهْنا وفى الصَّحراء إذا ضَللنا طَريقنا .

كان الغُلامُ مَدْهُوشاً وهو يَسْمعُ هذا الكَلامَ . إنهُ كلامٌ لم يَسْمعهُ من أحَد ، ولم يَسْمعهُ من السَّاحر .

الغُلامُ : ولكنْ يا أبت . . دَعْنى أناديكَ بهـا ، فـأنا يَطيبُ لى أن تكُونَ لى مُرباً مثْل أبى . هَلْ اللهُ يرانا الآنَ ويَسْمعُنا الآنَ ؟

الشـيخُ : نَعَم يا بُنىَّ ، بل هُو الذى أحْـيانَا وهُو الذى يُمـيتُنا ، وسَوْفَ يُحيينا بَعْد مَوْتنا مَرةً أخرى ليُحاسبنا على أعْمالنا ، فيكافئَ المُحسنينَ بالإحسان إليهَم ويُعَذِّبَ الأشْرارَ والظَّالمينَ .

الغلامُ : زدْنى علماً أيها الشَّيخُ الكَريمُ . . إننى أريدُ معرفةَ الله .

قـال الشيخُ : يا بُنى قُمْ الآنَ إلى أستـاذك حتى لا تتأخَرْ عليـه ، وللحديث صلَةٌ فى وَقْت آخرَ .

انصرفَ الغُلامُ وهُو يُفكرُ فى كَلام الشَّيخ الوَدود ، وعندما دَخَل على السَّـاحر وَجدهُ غَاضـباً يَشْتمُ ويَنْهرُ ، فسكتَ ولَم يَرُدْ . وتَعَلَّم الغُلامُ عن الرَّاهب ـ الشَّيخ الكَريم ـ الكثير عن عظمة الكون ، وروْعة النجوم والكواكبَ ، وأن الذى خَلقها ويُسَيِّرها بحكْمة ودقَّة هو اللهُ ـ تعالى ـ .

وتَعلَّم كـيفية التَداوى بالأعشاب ، وأدركَ أن المَريضَ يَجبُ أن يَعْلَم أن اللهَ وَحدُه لا شَريكَ لَه ، هُو الذى أمرْضَهُ وأيضـاً هوَ الذى يَشْفيه ، وأصبحَ الغُلامُ يُداوى المَرضى .

أحبَّ الغلامُ الجُلوسَ إلى الرَّاهب وتَعلَّمَ منهُ الكَثير ، وكان جُلوسُه إلى الرَّاهَب يؤخرُه أحيْاناً عَن السَّاحر ، فيضربُه السَّاحرُ ، ويُؤخرهُ عن أهْله وهَو عَائدٌ إلى البَيْت فيضربُهُ أَهْلُهُ .

فقالَ له الرَّاهبُ : إذَا خَشيتَ السَّاحرَ فقُل حَبَسنى أهْلِى وإذا خَشيتَ أهْلَكَ فقُلْ حَبسنى السَّاحرُ .

ظَلَّ الغُلامُ على هَذا الحَال مُدَةً ، يَرُوحُ إلى السَّاحرُ ، ويَغْدُو إلى الرَّاهب ، ويَسْمعُ لهذا ويتَعَلَّم من ذَاكَ ، حتى كان يَومٌ ؛ فبينما هو فى طَرِيقه إلى السَّاحر إذْ به يَرى النَّاسَ فى خَوْف وهَلَع ، ونَظَر فإذا دَابةٌ عَظيمةٌ وَسْطَ الطَّريق تمنعُ النَّاسَ من المُرورِ ، والنَّاسُ تقفُ فى خَوْف وَفَزع .

فكَّرَ الغُلامُ وقَالَ : اليَومَ أعلَمُ السَّاحرُ أفضلُ أم الرَّاهبُ أفْضَلُ ؟!

فَأخَذ حَجراً وقَالَ : اللهمَّ إنْ كانَ أمْرُ الرَّاهب أحبُّ إليكَ من أمْر السَّاحر فاقْتلُ هَذه الدَّابَة حَتى يَمْضى النَّاسُ . فرماهَا فقَتلها ، ومضَى النَّاسُ .

فأتى الرَّاهبَ وأخبره بما حَدَث .

فقالَ الشيخُ : أىْ بُنىَّ . . إنكَ اليَومَ أفضَلُ منى ، قد بَلغَ من أمرك ما أرىَ ببَركة إخْلاصكَ لله ، وحُبِّكَ للحقيقة وإنكَ سَتُبتَلى ، فلا تَدُلَّ علَىَّ .

وذَاعَ فى النَّاس خَبرُ الغُلامِ ، وأنهُ يُعالجُ النَّاسَ من الأمراضِ ويُبرئُ الأعْمَى والأبْرصَ .

وسَمعَ أحدُ جُلساء المَلك عن الغُلام ، وكان قَد عَمىَ وفأتاهُ بهدايا كَثيرة وقَال لـه : أيُّهـاَ الفَتَىَ . . هـذه الَهَـداياَ لـكَ . . وَمثْلُها إنْ أنْتَ شَفيتَنىَ من العَمَى .

فقال الغُلامُ : إننى لا أشْفى أحداً ، إن الـذّى يَشْفى النَّاسَ هو اللهُ ـ تعالى ـ ، فإن أنتَ آمنتَ باللَه ـ تعالى ـ ، دَعَوتُ الله فشفَاكَ .

فآمَنَ الرَّجلُ بالله ـ تعالى ـ ، فدعا الغُلامَ له ، فشفاه اللهُ وخَرجَ يَمشى مُبصراً .

ثُمَّ أتَى الَرَجُل الملكَ وجَلَس إليه كما كانَ يَجلسُ فسألهُ المَلكُ :

ـ من رَدَّ عليكَ بَصَرَكَ ؟

قالَ الرجلُ : رَبىِّ .

انتفضَ الملكُ وصَاحَ : مَنْ ؟ . . أوَلَكَ رَبٌ غَيْرى ؟

قال الرجل : نعم . . ربى وربك الله .

فأخذُه الملكُ ودفعهُ إلى الجَلاَّد ، ولازَالَ يُعذبُه ويضربُه حتى دلَّهُ على الغُلامِ .

فَجىء بالغُلامَ المُؤمْن إلى قَصْر المَلك ، وعندما وقَفَ أمَامَهُ سألَه المَلكُ : أىْ بُنَّى . . قَد بَلَغَ من سِحْرِكَ ما تُبرئُ الأعمَى والأبْرَصَ وتَفعَلُ وتَفْعَلُ ؟!

فقالَ الغُلامُ : إننى لا أشْفَى أحداً ، إنما يَشْفى اللهُ ـ تعالىَ ـ

أشَارَ المَلكُ إلى أعوانه ، فأخَذُوهُ وعذَّبوهُ حتى دَلَّ على الرَّاهب .

فَجيءَ بالرَّاهب ، وأمرهُ المَلِكُ أن يَرجعَ عن دينه ، فأبى الرَّاهبُ وأخَذ يتَمتم فى سَرِّه : لا إله إلا الله . أحدٌ . . أحَدٌ

فدعا المَلِكُ بالمِنشار ، فَوضعَ فى مِفْرقِ رأسِه بعد أن صَلَبوهُ، وسألهُ : هل ترجع عن دِينكَ ؟

قال الراهبُ وهو يرفعُ بَصَرهُ إلى السَّماء : لا إله إلا اللهُ . . أحدٌ . . أحَدٌ ، عليها أحْيا ، وعليها أمُوتُ وعَليها أبْعثُ . إن شاء اللهُ .

أشَارَ المَلِكُ إليهم إشارةً ، فَهوى المِنشارُ على رأسه فَشقَّهُ حتى وَقَعَ شِقَّاهُ ، وتَنَاثر لحمهُ وعظمهُ ، وسَالتْ على الثَّرى دِماؤُه .

قالَ الملكُ : ائْتونى بالغُلام . فَجيءَ به .

قالَ لهُ : يا بُنىَّ ارجعْ عن دينكَ ، إنكَ صَغيرٌ . ألا تَعْلمُ ما فُعلَ بصاحبك العجوز . . ذلك الراهب الذى أغواك ؟!

قالَ الغُلامُ : كلاَّ . . لنْ أعُودَ إلى ملتكم بعد إذْ نَجَّانى اللهُ منها وإنْ اللهَ ـ تعالى ـ هو ربِّى وربكُّم ، وخَالَقى وخَالقكُم .

صاحَ الملكُ : اذهبوا به إلى الصَّحراء ، واصْعَدوا به الجَبلَ، فإذا بلغْتُم ذُرْوَتهُ ، اتركُوهُ لحظةً يفكرُ فى الأمْرِ ، فإن رَجَعَ عَن دِينه فاتركوه ؛ وإلا فاطْرحُوهُ من فوق الجَبل .

فذَهبَ الحُرَّاسُ بالغلام ، وصَعَدُوا به الجَبلَ ، وهُناكَ رفَعَ الغُلامُ عينيه إلى السَّماء وقال خَاشعاً : اللَّهم أكفنيهم بما شئْتَ .

فارتَجفَ الجَبلُ كأن زِلزالاً وَقعَ ، وسَقَطُوا جَميعاً إلا الغُلامُ وعَادَ

إلى المَلكْ ماشياً .

فلما رآهُ المَلكُ دَهشَ وقالَ : ما فَعَلَ أصحابكُ ؟

قالَ : كفَانيهم اللهُ تعالى .

رَدَّدَ الملكُ كَلاَمَ الغُلامِ فى ذُهُول : كَفانيهمُ اللهُ تعالىَ ؟!

واستعلَ غَضَباً : ما هذا الهُراء الذى يَقولُه الصَّبىُ ؟! . . إنهُ يسْخرُ منَّا ، ويُسَفهُ عُقولنا ، ويتحدَّى قُوتنا .

وأشَارَ إلى بَعْض رجاله : اذْهَبُوا به فاحْملُوه فى قَارب وتوسَّطُوا به البَحَر ، فإن رَجَعَ عَن دينَه فعُودُوا به ، وإلاَّ فاقْذفُوهُ فى اليَّمِ ليكون طعاماً للحيتان .

فذَهَبُوا بالغُلام إلى البَحْر ، وانْطلَق القَاربُ بعيداً عن الشَّاطئ حَيثُ الموجُ الهائجُ ، والقَاعُ العَميقُ ، وهُناكَ رفَعَ الغلامُ المؤمنُ عَينيه إلى السَّماء وقالَ فى ضراعَة : اللهمَّ أكفنيهم بما شئْتَ .

فجاءت مَوْجةٌ شديدةٌ أكفأتْ القَاربَ فوقعوا فى اليَّم ، وغَرقُوا ، وتَشَبَّثَ الغُلامُ بلوحٍ خشبى حتّى قَذَفهُ المَوجُ إلى الشَّاطئ .

وعاد إلى المَلك ماشياً ، فلما رآهُ الملكُ ، لم يُصدق عَينْيه وعقدتْ لسانَهُ الدَّهشَةُ ، ولم يَدْر ما يقُولُ .

أشارَ الغُلامُ بأصْبعه وقال بثبات وثقَة : إنكَ لَسْتَ بقَاتلى أيها المَلكُ حتى تَفْعلَ ما آمُركَ به .

قالَ الملكُ ساخراً : ما هُو ؟

قال : تَجْمعَ النَّاسَ فى مكان واحد وتَصلْبنى على جذعِ شَجرة ، ثُمَّ خُذْ سَهْماً من كَنَانتى ، ثُمَّ ضَعَ السَّهمَ فى كَبد القَوْس، ثم قُلْ : بسْم الله ربِّ الغُلامِ ، ثم ارْمنى ، فإذا فَعلتَ ذلكَ . . قَتلتَنى وخلَصْتَ منىٍّ .

نَظَر المَلكُ لمن حَوْلَهُ وقَالَ : ألا تَسْتمعونْ ؟ . .

اخرجُوا إلى النَّاسِ واجمعُوهُم فى سَاحَةِ العَرْضِ ليَشْهدُوا مَقْتَل هَذا الغُلامِ الآبقِ .

واجْتمعَ النَّاسُ بأمر الملك فى سَاحَة كَبيرة ، فى زحَام كأنهُ يَوْمُ الحَشْر ، رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ ، الكلُ فى انتظَارِ لَحْظةَ إعدَامِ الغُلام العَنيدَ ، الذى طالمَا تحدَّى الملكَ .

والغُلامُ المُؤمنُ يَجلسُ سَاكناً أمامَ جذْعِ شَجرة ، متأملاً هذا الحَشْدُ الكَبيرُ من النَّاسِ ، وضَجيجٌ وصَخَبٌ كَأنهُ سُوقٌ كَبيرٌ .

وجاءَ مَوْكبُ المَلك فَصفَّقَ النَّاسُ ، وبسرعةِ صُلبَ الغُلامُ على جذْعِ شَجَرة حتى يراهُ المَلأُ .

ووضَعَ المَلكُ السَّهمَ فى القَوْس ، ورفعَهُ صَوْبَ الغُلامِ ، وصَاحَ الحُراسُ : سُكُوتاً . . سُكُوتاً أيُّها النَّاسُ .

وبصوتٍ عَالٍ صَاحَ الملكُ : بسْم اللهِ ربِّ الغُلامِ ، ثم رَمَاهُ فوقَعَ

السَّهمُ فى صدْغه ، وهوُ يُردِّدُ : لا إله إلا اللهُ . لا إله إلا اللهُ . .

نَظَر النَّاسُ بعضهُم إلى بَعْضٍ وصَاحُوا : آمنا برَبِ الغُلامِ .

آمَّنا بربِ الغُلامِ . .

وَركبَ المَلكُ جَوادَهُ وعَادَ إلى قَصْره هَادئاً مَسْروراً ، وقد ظَنَّ أنهُ استراحَ من هَمِّ هَذا الغُلامِ العَنيد .

ولم تَمُره سَاعةً حتى دَخَل رِجالُ المَلكَ عليه فى هَلَعٍ وجَزَعٍ فصاحَ فِيهم : ما شَأنكُم ؟!

قالُوا : أرأيتَ مَا كنْتَ تَحذرُ ، قَدْ والله نَزَل بَكَ حَذَرُكَ . . قد آمنَ النَّاسُ بربِّ الغُلامِ .

انتفضَ المَلكُ وهو يَصيحُ غاضباً : ماذَا ؟! آمنَ النَّاسُ بربِّ الغُلام؟! . . كَيفَ . . إنه قُتل أمامَ أعينهم حتى يَزْدجِرُوا . . يالَهُ من غُلامٍ ماكرٍ !!

لقد حَسبنا أنَّنا بهذا قد خَلُصْنا منهُ ومن غِوايته للنَّاس ، والله لأجعلنَّهم عِبْرةً لمن يَعْتبر . . اسمعوا جَيداً . .

قال الرجالُ : سَمْعاً وطَاعةً أيّها المَلكُ . .

المِلكُ : احفُروا أخْدُوداً عَميقاً فى الأرضِ ، وأجِّجُوا النيرانَ فِيه ،

أريدهَا ناراً حَامية وهَائلةً ؛ ومن لَمْ يرجعِ عن دِينه فألقُوه فيها ، ولا تَستثنُوا من ذَلكَ أحَداً .

وحَفَر الرِّجالُ الأخدودَ ، وأضْرمتْ النِّيرانُ ، واقْتيدَ النَّاسُ بالقُوة، وحَشَرهُم الحُرَّاسُ أمامَ الأخدودِ ، والنَّارُ تلفحُ الوُجوهَ ، ويُسْمعُ لها تَغَيُّظاً وزَفيراً .

كانَ النَّاسُ كلهم فى رُعْب ، الأطفالُ تَصرخُ ، والنِّساءُ تبكى ، والنَّاسُ تُلقَى فى النَّارِ وَاحداً تلْوَ الآخَرِ .

وجَاءَ الدَّورُ على إمرأة مُؤمنة ـ وكُلُّهم مُؤمْنون ـ وهى تحملُ صَغيرها ، وتضُمهُ إلى صَدْرها بأعيَن دامعة ونَفْس مُلتاعة ، ودَفعها الحُرَّاسُ إلى النيران وهى تَمْشى بخُطًى وَانية ومُرْتبكة ، وتَنْظُر إلى الغُلام الرَّضيع بلوعَة وحَسرة . وعلى حَافَة الأخدود تسمَّرتْ وتقَاعَستْ أن تَقَعَ فى النَّارِ .

فقالَ لها الغُلامُ الرَّضيعُ : يا أمَّاهُ . . اصْبرى فإنك على الحقِّ .

وهُنا جَفَّ دَمْعُها من الدَّهْشة ، وضَمَّتْ صغيرها إلى صَدْرها وهى تُردِّدُ : آمنتُ بالله الذى لا إله إلا هُو . . آمنت بالله . . وألقُوها فى السَّعيرِ ! .

ذو القرنين

كَانَ ذُو القَرْنين ، ولَعَلَّهُ الإسكندرُ المَقْدوتى ـ رَجُلاً صالحاً ، آتاهُ اللهُ العَقْل والحكمَةَ ، وزادَهُ بَسْطةً فى العلْم والجسم ، وكانَ غَنِيّاً وافَر الغنَى ، ثَرِيّاً وافرَ الثَّراء ، وله جَيْيشٌ عَظِيمٌ هَائلٌ مُكونٌ من رجال غلاظ شداد ، لا يَعْصُون له أمراً ، ولا يَخافُونَ من عَدُوٍّ نَيلاً ، ويَفْعلونَ ما يُؤْمرونَ .

وكان ذُو القَرنين يَغْزُو بجيوشه الأقْطَارَ والأمْصَارَ ، ويخترقُ الصَّحارى والجبالَ ، يَنْشرُ العَدلَ ، وينْصُر المُستضعفينَ ، ويكْسَرُ شَوْكَةَ المُلوك الظالمينَ .

وسَارَ بجيُوشه الهائلة نَحوَ الغَرْب ، يكْتَسحُ فى طَريقه كُلَّ شَىء حتى أطَلَّ على المَحيطُ الأطَلنطىُّ ، وصَاحَ فى رِجاله :

ـ على رسْلكُم !

ووقَفَ الجُنُود ، وهوَ يتقدمُهُم مُمْتَطياً صَهْوةَ جَواده يَنظرُ إلى الأفُق والشمس سَاعةَ المَغيب ، مَشْهدٌ هَزَّ مشَاعرهُ وأثَارَ فكْرَهُ .

كَانَتْ قُبَّةُ السَّماء الزَّرقاء يكْتفى بصفحة الماء الممتدة على مَرمى البَصر فَضاءٌ رَحْبٌ ، وَزُرْقةٌ شَاسعَةٌ .

وكانَ المَوْجُ يَهْدِرُ بعنف ، ويرتطمُ بالصَّخرِ الرَّابصِ على السَّاحِل

فيتناثرُ الماءُ على وُجوه القُوَّاد وخيُولهم ، فينطَلقُ من الخُيول صَهيلاً عَالياً ، كأنها تَبعثُ احتجاجهَا للموجِ وللبحر .

تَقَدَّمَ جَوادُ ذو القَرْنين خُطوتين حتى سَاحَتْ أقدامُهُ فى المياه، وهو يَهزُّ ذَيْلَهُ تيهاً وعُجْباً ، ويَصْهَلُ مُتحدياً المَوجَ العَاتى .

كان ذو القَرْنين ينظرُ شارداً سَاهماً وسَطَ هذا الضجيج . . المَوج والخَيْل والجَيْش ويتساءَلُ فى دَهْشة : ها أنَذَا أقفُ على ساحل العَالم وشاطئ الدنيا .

ـ لم يَبْقَ أمامى شبْرٌ من الأرض لم تَطأهُ أقدامُ جيادى . . أيكونُ هذا هو سَاحلُ الدُّنيا ، وشاطئُ الحياة ؟!

أم تُرى وراءَ هذا الخضَمِ الهائل عَالمٌ وأرضٌ وبَشَرٌ ؟!

وهَالَهُ قُرْصُ الشَّمس القَانى وهو يَتحدَّرُ ويتضاءَلُ فى رَوْعة ورَهْبة شيْئاً ، ويَنْسابُ غارقاً فى لُهجَّة المَاد .

وامتزجَتْ الألوانَ بالأصوات فى لَوْحة رائعة من نار ومَاء وطين .

هَمسَ الإسكندرُ مُناجياً رَبَّهُ : ياإلهى سُبْحَانَك ، مَا أعظَمكَ وما أحكَمكَ ، وما أرْحَمكَ .

أهَذى الشَّمسُ الدافئة تذوى وترحلُ فى لحظة ؟! .

أيكُونُ مَصيُرها ـ على عَظَمتها ـ إلى الزوال والفَنَاء ؟!

. . تُرى أيكونُ مَصيرى فى قُوتى ومَمْلَكتى مثلما آلَ مصيرُ الشَّمس ؟! أيكونُ مصيرُنا جَميعاً إلى الفَنَاء . . وتبقى مملكة الرَّب ، وتَبْقَى عَظمةُ الخَالق؟!

ثُمَّ ماذا ؟! . . ثُمَّ يَبْعثُ اللهُ الخَلْق كما يَبْعثُ الشَّمسَ من جَديد غَداً .

وآفَاقَ القَائدُ الكبيرُ من شُروده وهو يُردِّدُ : سُبحانكَ يا صَاحبَ الكَونْ ، ويا مالكَ المُلْك . . حقاً ماَ أعظَمْكَ !! .

التَفتَ ذُو القَرنْين إلى جُنْده ، وأشَارَ إليهم بالرَّحيل .

واتَخذَ الجَيشُ طَريقاً مُوْعلاً في الجبال حتى وَصلوا إلى أرض طَيبَّة ذات زُروع وثمار ، ويَعيشُ فَيها قومٌ هَمَجٌ كالأنعامِ الضَّالة . . رِعَاعٌ ، لا دِينَ لهمَ ولا خُلُقَ .

فقال أصحابُ القائد : يا ذا القَرنين . . إن هَؤلاء قومٌ ضَالونَ كافرونَ لا يعرفونَ لَهم رَبّاً ، ولا يَدينُونَ ديناً ، فما رزيُكَ فيهم أيها القائدُ العظيمُ . . إما أن تُعذبَ هؤلاء القومَ على ضَلالهم وكُفْرهم ، وإما أن تَتخذَ فيهم حُسْناً ، فتدعُوهُم إلى الله ، وتُعَرفهم بحقيقة الكَوْن وطبيعة الحياة ، وتَصبرَ عَليهمِ حَتى يَنْتهوا عما يَفْعلُونهُ منَ فَساد وَضلال وَغيٍّ .

فَقالَ ذُو القرنين : ندعُوهُم إلى عبادة الله ، ومن ظَلَمَ منهم نَفْسَه باتباعه هَواهَا ، واطراره على ضلاله وكُفَره فَسوفَ نُعذبهُ ثم يُرَدُّ إلى ربِّه فيَعَذبُه عذاباً نُكْراً . .

وأما من آمَن من هَؤلاء النَّاس بدعوتى ، وآمنَ بالله ربّاً وعَملَ عَملاً صَالحاً فله جَزاءَ الحُسْنى ، ونقولُ له من أمرنا يُسْراً ، ونحنُ مُعاملتهُ وصُحْبَتَهُ .

قَلتَ ذُو القرنين في هذا المكَان قليلاً وَثيما استَراحَ الجَيشُ واطمأنَّ

القَومُ ، ثُمَّ أدارَ وَجْهَهُ جهةَ المَشْرق ، وانطلقَ الجيشُ العظيمُ يَشُقُّ الصَّحارى ، ويَجُوبُ الأمصارَ ، ويَخترقُ الأدغَالَ والغَابات حتى وَصَلَ بعد طُول سَفر إلى حافة المُحيط العظيم . . . المحيط الهادىَ .

وعَسكَرَ القَائدُ بجيشه على سَاحلِ المُحيط ، وباتَ ليلتهُ آمناً سَالماً .

استيقظَ ذُو القَرنين على صَوْت الطيور وهى تُغرد وتصدحُ ، فَطَلَّ برأسه من خَيمته ليرى رَوْعَةَ الصَّباحَ .

كَان الصبحُ يتنفسُ ببطء ، وخرجَ ذو القَرنين من الخَيمة ليُمتعَ ناظريه بروعة الضِّياء ، وَيَنْتَش بنائمِ البَحْرِ ، ويُصْغى إلى تَسبيحِ الكَوْنْ .

رَاحَ ذو القَرنين يَمْشى وانياً بمحاذاة السَّاحل ، ويُرسلُ بَصرهْ إلى الأفُقُ ، وهنا كانتْ الشَّمسُ الرائعةُ تَخرجُ رُوَيداً رُويداً من لُجة الماء ، بلونها القانى الذى أحَالَ الأفُقَ إلى لَظى[1] .

هَتَفَ ذُو القرنين : يا إلهى سُبحانكَ ، يا خالقَ الشَّمس ويا صَاحبَ الكَون ، ويا وَاهبَ القُوى ، أين قُوتى من قُوتكَ ، وَأين تكون مَملكتى فىَ ملكوتكَ ؟! .

ها هى الشَّمسُ تَطْلَعُ من قَاع المُحيط مثلما غاصتْ من قَبلُ فى لُجَّة الماء . . وها أنَذَا أقَفُ يا ربٌّ جَائراً فى نَظام ملكوتَكَ . . يا ربُّ ألهَذَا العَالَمُ نهايةً ، وكيفَ السَّبيلُ إليها إننى يَا ربُّ عَبْدكَ .

---

(١) لظى : نار .

واصلَ ذُو القَرنين زَحْفهُ بَجيشه العَظيمُ مُتجهاً نحو الشَّمال حتى وَصَلَ إلى واد مَحْصور بين جبلين عَاليين ، وهُناكَ وَجَد قَوْماً ضَالين ، أجسَامُهُم فَتيَّةٌ ، وأسنانُهم قويةٌ ويَعيشونَ حَياةً كأنَّهم البَهائمُ فى الغَابات ، سَلَبٌ ونَهْبٌ ، وأكلٌ لُحوم البَشر ، ونَهْش العظام .

وقَفَ ذُو القرنين يتأمَّلُ هؤلاء القَوم ويتعجَّبُ . . أناسٌ كالبهائم أو أحَطُّ ، ولا يكادونَ يَفْهمونَ كلاماً ، ولا يَعرفونَ أن لَهُم رباً ، ويَعيشونَ على الأرض فى ضَلال ، لكن يا ربُّ هل ستُحاسبُ هؤلاء على جَهْلهم وضلالِهَم ، أم أن رَحمتك أرْجىَ لهم بما سَلبتُهم منَ عُقول .

ذَّهَبَ ذو القرنين إلى جيرانهم وسألهم عنهم ، فقالوا فى عَجْز وضَعْف : يا ذا القَرنين . . إن يَأجُوجَ ومَأجُوجَ هَؤلاء قَومٌ مُفْسدونَ فى الأرضِ ، ومُخرِّبونَ .

إنهم يَنْهبونَ زُروعنا ، ويَخطفونَ أنعامنَا وأولادنا ، ودَائماً يَسْطُون علينا ، ولا يَتركونَنا نَهْنأُ بالعَيْش الآمن .

فهل نجعلُ لكَ نصيباً من حَصَاد زُروعنا فى مُقابلَ أن تجعلَ بيننا وبينهم سَداً عالياً يَقينا شرَّهُم .

تَبَّسمَ ذُو القرنين ضاحكاً من قولهم ، وقالَ : ما مكَّنَّنى فيه ربِّى خَيْرٌ مما آتاكُم ، وأنا لَسْتُ فى حَاجةٍ إلى حَصَادكُم ولا إلى زُرُوعكُم . ولكنْ .

قالوا : ولكنْ ماذا أيُّها القَائدُ العَظيمُ ؟

قالَ ذو القرنين : أعْينونى بقوةٍ ، وآتونى بالعُمالِ والرِّجالِ ،

وسَنعملُ سَوياً ، أنا برجالى وجَيْشى ذَوى المَهارةِ والخبرةِ ، وأنْتُمُ بسواعدكُم وهممكُم . . هيَّا من الآنَ .

وتَجَّمعْ الَصناعُ المهرةُ والرِّجالُ الأشدَّادُ فى مَوقْعِ العَمل وأمرهُم القائدُ بأن يُحضروا قطعَ الصُّخورِ وكُتَلَ الحَديد من الجِبالَ ، وقطع الأخْشاب . . من جُذَوعِ الشَّجر .

وأشعلوا النيران ، وصَهَروا المعَادنَ ، وارتفعَ البناءُ بَين الجبلين وتكَّونَ السَدُّ العظيمُ منْ صُخور قاسية وعَالية ، ثُمَّ صَبُّوا فَوقَ السَدُّ مَصْهور الحديد والنُحَاسَ المُذابَ ، وتَركوهُ حَتى جَمدَ ، فكان السَّدُ صُلْباً قَاسياً أمْلَسَاً . لا يَسْتطيعُ أن يَتَسلَّقهُ أحدٌ أو تخترقُه قُوةٌ .

ووقفَ ذُو القرنين ـ القَائدُ ـ أمامَ السَّد العَظيمُ ، وأمامُه حَشْدٌ هَائلٌ من النَّاس وقَالَ :

ـ أيُّهـا النَّاسُ . . هذا رَحْمـةٌ من رَبىٍّ إذْ مكننى أن أقيمَ لكم هذا السَّدَ ليقيكم شَرَّ هَؤلاء القَوم المُفسدينَ . . يَأجوج ومأجُوجُ .

ولكنْ اعْلَموا ـ رَعَاكُم اَللهُ ـ أنهُ إذا جَاءَ وَعدُ ربِّى يومَ القيامة فسيجعلُ هذا السَّدَ دكَّاً دَكَّاً ، وسيجعلُ هَذين الجَبلين وكُلَّ الجبال هَبَاءً مَنْثوراً وسَيْجمعُ للهُ كفلَّ الخلائق للحساب

وبعد مُدة ارتحلَ ذُو القرنين بجَيشه العَظيمِ فاتحاً الأقطَارَ والأمصارَ .

أصحابُ الفيل

كانَ ذُو نُواس مَلكاً على اليَمن ، وكانَ يَهُودياً شَديدَ التَمسُك باليهُودية ، وكانَ يَضيقُ صَدْرُهُ ويَطيشُ عَقْلُه عندما يَسْمَعُ خَبراً عنَ انْتشار النَّصرانية ـ دينُ المَسيح ـ عليه السَّلام ـ وعن اتْبَاع النصرانية فى نَجْرانَ الذينَ يَزيدُونَ عَدَداً ، ويَتحلَّونَ بأخلاق ساميةَ من التَّسامُح والرَّحْمة ، ويُؤمنونَ بأن اللهَ واحدٌ لا شَريكَ له .

وكانَ ذُو نُواس يَهبُّ على اتْباع المَسيح كما تَهبُّ العَواصفُ العَاتيةُ على الأزْهار النَّاضرَة ، والأشْجَار المُثْمرة فتَجْعلها حَصيداً .

فكانَ يُعذَّبُ هَؤلاء النَّصارى الذَّين تركُوا دينَ اليَهودية ، واغْتَنمُوا النَّصرانية ، فَيَشْوى أجْسامَهم ، ويُلقى بهم فى السَّعيرِ . . أخْدود كَبير فيه نَارٌ مُوقدةٌ .

وفَرَّ نَفَرٌ من هَؤلاء النَّصارى بدينهم إلى النَّجاشى مَلك الحَبَشة ، وكانَ النَجاشىُّ إذْ ذَاكَ نَصيراً للنَّصرانية ، يَدينُ بها ويتَخلقُ بآدابها .

وعنْدما سَمعَ بما فَعَلَهُ ذُو نُواس بالمؤمنينَ هَبَّ لنَجدتهم ، والثَّأر لهمُ ، فَجهزَّ جَيْشاً قوياً كَثيرَ العَدَد ، وانْطَلَقَ به إلى أرْض اليَمن ، وهُناكَ التقَى الجَمعان ، ودارتْ حَرْبٌ لا هَوَادةَ فيها ، فَذُو نُواس يُراوغُ بجيشه فى أرْضه ، والنَّجاشى يُثير فى جُنْده روحَ

الانتقام، ويَحثُّهم على الثَّباب ومُواصلة القتال . . .

وتَتَابعتْ الهَزائمُ على ذى نُواس وأتْبَاعُه حتى أسْلَمتْ اليَمنْ أخيراً إلى النَّجاشى ، وأصْبحت وَلايةً تابعَةً لنصارى الحبشة .

ودارتْ الأيامُ ، وأصْبحَ أبْرهةُ مَلكًا على الحَبَشة ، ورأى بعد مُدة فُتُوراً فى تَمسُّك النَّصارى بدينهم ، ورأى النَّاسَ جَميعاً يَهْجُرون الكنائسَ ويَشُدُّون الرِّحالَ قَاصدينَ بيتَ الله الحَرامِ .

فسألَ أعوانُه : أينَ يُذْهبُ هَؤلاء النَّاس ؟

فقالوا لهُ : يَحُجُّونَ إلى بيت الله بمكةَ .

فَقالَ بدْهشة : وما هذا البيتُ ؟

قالوا : بَيْتٌ عَتيقٌ من حجارة .

فقال : لأبْنينَّ للنَّاس خَيْراً منهُ .

وأمَرَ أبْرهةُ رجالهُ ببناء بَيْت من رُخَام ووَشَّاهُ بالذَّهَب والفضَة ، ودَهَنُه بالمسْك والعَنْبر ، وَجَعَلَ الأنْوارَ تتلألأ فيه فكانَ هَذا البيتُ كنيسةً كبيرةً كأنَّها دُرَّةٌ عَظيمةٌ .

وأمَرَ أبرهةُ النَّاسَ أن يَحجُوا إلى هَذه الكَنيسة بَدلاً من شَدِّ الرحال والسَّفر إلى البَيْت العَتيق الذى بمكةَ .

لكنَّ النَاسَ لَم تُعظِّم هذه الكنيسةَ ولم تلتفتْ إليها وظَلُّوا على عَادَتهم يَقصدُون البيتَ العتيقَ بمكةَ .

فثارَ أبْرهةُ وغَضبَ ، وعَزَّ عليه أن يَنْصرفَ النَّاسُ عن البَيْت الذى بناهُ وزَيَّنهُ وكَلَّفه الكَثيرَ ، ولكنه كظم غيظه وراحَ يدعو النَّاسَ إلى

الصَّلاة فى الكنيسة العظيمة التى بناها ، وأن يُقدموا القرابينَ والذَّبائحَ بدلاً منَ مَشقة السَّفَر إلى مكَّةَ

ولم يَستجب له إلا قليلٌ ، حتى جاء يومٌ تَسلَّلَ فيه رجلٌ عَربىٌّ أحْمقٌ ، من قبيلة كنانةَ إلى كنيسة أبْرهَةَ .

وهُناكَ عند المَذْبح وفى غَفْلة من العُبَّاد والحُرَّاس فعل هذا الأحمق فعْلتهُ وتَركَ فى المكانَ نَجَاسَةً وقَذارةً .

وعنْدما عَلمَ أبْرهةُ بالأمر هَبَّ غَاضباً وصاحَ ثائراً : والله لأنْتقمنَّ للكنيسَة لهذا وَلأهْدمنَّ البَيْتَ العَتيق .

وهَيَّجَ أبرهُة القومَ وجَمَّعَ الرجالَ وأحْضَرَ الأفيَالَ وجَهَّزَ جَيشاً كَبيراً يتقدمُهُ الفيلةُ الشِّدادُ ، ويَتزعمهُم فيله العملاقُ الأبيضُ .

وانْطَلقَ الجَيشُ الهائلُ يكْتسحُ فى طَريقه قبائلَ العَرب ويَنْتقمُ منْهُم .

وسَارَ بالجيش حتى وَصَلَ مكةَ ، فَرأى إبلاً تَرْعى فى الصَّحراء فَغَنمها ، وعَسْكَرَ بجيْشه على مَشَارف مكَّةَ وكانَت هذه الإبلُ لعبدَ المطَّلب ـ سَيدَّ مكةَ .

وأرْسَلَ أبرهةُ فى طَلب أصْحَاب البَيْت العَتيق وخَيَّرهُم بين التَّسليم والتَّدمير .

واجْتَمعَ العَربُ فى دَار النَّدوة للتَّشَاور فى الأمْر ، ويَسْألونَ عَبْدَ المطَّلب : ماذا هُم فاعلونَ ؟

قالَ لهمُ عَبد المُطلب : إنَّنا لا نَسْتطيعُ فيالَ أبرعهة ولا مُواجَهة

جَيْشه ، وأرَى أن نَحْتمى فى الجبال .

فقالوا : نعْمَ الرأىُ ، فنحنُ لا طاقةَ لنا بإبرهَةَ وجُنوده فتركُوا بُيوتَهم خَاويةً ، وصَعَدُوا فى الجبال تاركينَ الكَعْبةَ يدافعُ عَنها رَبُّها ، وكُلُّهُم أسَفٌ وحُزْنٌ .

وخَرجَ عبد المطُّلب ـ سَيِّد مكةَ ـ بنفسه لُملاقاة أبْرهةَ قَائدُ الجَيْش للتفاوضِ معهُ ، وكانَ عَبدُ المطلب وسيماً مَهيباً ذا وَقَار .

فلما رآهُ أبْرهةُ قَامَ إليه إجْلالاً وإكْراماً ثُمَّ سَألَهُ :

ـ أنْتَ سَيِّدُ هَذه القَرْيَة ؟

قال عبدُ المُطلب : نَعَم .

قال أبْرهةُ لتَرجُمانه : سَلْهُ ما حَاجَتكُ ؟

قال عبدُ المفطلب : يَرُدَّ على المَلك البعير التى أخَذَها . . فهى لى .

فضحكَ أبْرهةُ وقال مُسْتنكراً : أجئتنى لتُكلمنى فى مائة بَعير أخْذتُها منكَ ، ولا تُكلِّمنى فى بَيْتٍ هُو دِينكَ ودِينُ آبائكَ قَد جِئْتُ بجيشٍ لهدمْه ؟!

فقام عبدُ المُطلب وهو يقولُ : إننى رَبٌ هذه الإبل وللبيت رَبٌ يَحْميه ، ولكنى أحَذِّركَ عَاقبةَ الأمر ، وانْتقَامَ الرَّبِّ ، وتركهُ وانْصَرفَ

ثُمَّ لَحِقَ بقومه فى الجبال يُتابعونَ ما سيفعله أبْرهةُ بالكَعبة .

وأقْبلَ أبْرهةُ فى جَيْشه العَظيم يَتَقدمهُم بفيله الأبْيض ، وتَوَجَّهَ ناحيةَ الكَعْبة ، والعَربف فَوقَ الجبال تجأرُ إلى الله بالدُّعاء .

وإذا بالسَّماء تَنعقلبُ حَالُها ، ويُصيبُها ما يُشْبهُ الغَمام ، لم تكُن سُحباً تَحجبُ ، بل كَانتْ طُيوراً عَجيبةً لم تَرَ العَربُ لها مَثيلاً من قَبْلُ، جَاءتْ من ناحية البَحرْ وكانت تطيرُ فى جَماعات مُتفْرقة وتُلقى على الجيْش حجارةً من سِجيلٍ ، وتُرسلَ أصْواتاً تُثيرُ الرُّعبَ فى صُفُوف الغزاة .

وتَفْزَعُ الفيلةُ ، ويَتَفَّرقُ شَمْلُها ، ويَتَساقَطُ الجُنودف كَالعَصْف المأكُول ، ويَرَى أبْرهَةُ المَغْرورُ ذلكَ .

فَيُصيبهُ الذُّهولُ والغَضَبُ وَيأمُر فيلَهُ بالتَّقَدمِ نَاحيةَ الكَعْبة فلا يَتَقَّدمُ ، ويَضْربهُ فلا يَزعدجرُ .

وأخيراً يَلُوذُ أبرْهَةُ مع قلة مَعهُ بالفرار ناجينَ من المَوْت ، وتَهْبطُ العَربُ من الجبال ويَدْخُلونَ الكَعبةَ ويَخرُّونَ لله سَاجدينَ شَاكرينَ .

• فهرس الكتاب •

العنـــــــوان	رقم الصفحة
قابيل وهابيل	٣
نوح والطوفان	٩
ابراهيم والنمرود	١٥
قصة الفداء	٢٥
يوسف ومحنة السجن	٣٥
الوزير الحكيم	٤٦
موسى والخضر	٥٧
طالوت وجالوت	٦٧
صاحب الجنتين	٧٢
سليمان والهدهد	٧٦
سيل العرم	٨٥
اصحاب الحديقة	٨٧
عزيز وحماره	٩١
اصحاب الكهف	٩٦
اصحاب الخدود	١٠٦
ذوالقرنين	١١٧
اصحاب الفيل	١٢٣
الفهرس	١٢٨

الندى للتجهيزات الفنية ٢٢٨٢٧٧ / ٠٤٠